و

مجموعة قصصية

الطبعة الأولي ٢٠١٧

و

قصص

تأليف :

عمرو العادلي

تصميم الغلاف:

أحمد مراد

مراجعة لغوية:

أحمد سعيد

رقم الإيداع: 2017/7040

الترقيم الدولي: 6-012-820-977-978

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678 -0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: info@kayanpublishing.com - kayanpub@gmail.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشرٍ في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

و

عمرو العادلي

مجموعة قصصية

إلى ندى

كل ما فيكِ يُشبهنى. حتى ما أحاولُ حجبه عن الأنظار.

وبعض عمرك

ما لم تعشه

وما لم تمته

وما لم تقله

وما لا يُقال

محمد الفيتورى

العنكبوت وأحلام جدي

انتظرتُ أن تُجيب أمي عن سؤالي، لكنها لم تتكلم، ظلت تتأملني لفترة طويلة وهي سارحة، فسألتها من جديد:

«أمي. ما هو العنكبوت؟».

لم ترد للمرة الثانية، وينادني جدي، يعطيني هدية نجاحي متأخرة كثيرًا عن ميعادها، يمد لي يده بِكُرة أرضية مُضيئة لها قاعدة حديدية كالرغيف، تسبق ابتسامته كلماته:

«هديتك كوكب».

قال ثم جلس في ركنه القصي كما تعودته دائما، أشار لي بسبابته، ثم جاهد كي يُخرِج صوته من حَلْقه:

«يا عُمر. لِمَ لم تكُ من الأطباء؟».

أرتبكُ وفي يدي هديتي، أضع كُرتي الأرضية فوق مكتبي الصغير، أقتربُ منه وأسأله:

«لماذا يا جدي؟».

يجيبني وهو يخفض من صوته كي لا يصل لأمي القريبة:

«لتصف لي دواءً يعالج الزمن».

وأتذكر سؤاله لي بالأمس:

«يا عُمر. لِمَ لم تكُ من المدرسين؟».

وقتئذ، سألته سؤالًا فوق سؤاله:

«لماذا يا جدي؟».

أجاب وهو يتكوم في بطانية كبيرة جداً مقارنة بحجمه:

«لتثبِّت درس الحساب في عقل ابن عمك إبراهيم».

لا أودُ أن يسألني أحد، كنتُ أحب أنا طرح الأسئلة. انصرفتُ من أمام جدي وتذكرت أن أمي لم تجب عن سؤالي لها منذ قليل، فكانت فرصة لأعيده على مسامعها مرة أخرى:

«أمي. ما هو العنكبوت؟».

تنشغل عني بأمور البيت، وينادني جدي بعد أن يسعل مرتين ويطرقع إصبعًا من قدمه، أجلسُ بالقرب منه، يشتد صوته:

«يا عُمر. لِمَ لم تكُ من المحامين؟».

«المحامون! لماذا يا جدي؟».

«لتسترد لنا الأرض دون مصاريف».

وعندما لم أجد ردًا أُلقي بكتبي فوق أكوام الذرة الجافة، أركن كراريسي بعيدًا عنه كي لا يخترع لي سؤالًا جديدًا، ثم أذهب لألعب خارج الدار. بعد أن تغيب الشمس أقترب جدًا من بابنا، ألتصق بالجدران الدافئة، أخاف أن يخرج لي العنكبوت من الظلمات عند نهاية الشارع، فأدخل، ولا أجد جديدًا، جدي يجلس كما هو، وأمي تضع ما تبقى من وجبة الغداء لدجاجات القن، تلتفت فتجدني واقفًا خلفها:

«ما هو العنكبوت؟».

لا أدري هل سألتها أم سألتُ نفسي، لا فرق، فقد اعتدتُ عدم ردها، انتبهتُ لجدي الذي كان يدوِّر كُرتي الأرضية بطرف إصبعه، ثم يسند كفه عليها ليوقفها عن الدوران ويقول:

«يا عُمر. الإيمان القوي يجعلك ترى الكون كهذه. صغيرًا جدًا. وتستطيع التحكم في أفلاكه».

ثم أخذ يلف الكرة من جديد حتى كلَّت كفه وغامت عينه،

رفع رأسه عاليًا قبل أن يقول:

«يا عُمر. لِمَ لم تكُ قائد طائرة؟».

وأسأله كما اعتدتُ:

«لماذا يا جدي. هل تريد أن تركب الطيَّارة؟».

يرفع يده عن الكرة الأرضية الزرقاء:

«لا. أريد أن أطير مثلها. بجناحين. وأصعد إلى أعلى. فأعلى، فأعلى».

قال، ثم ترك عصاه تقع، ظل يرفرف بيديه ولا يتحرك من مكانه.

بعد مدة لا أعلمها بعدد السنين والحساب؛ أرى جدي يتوكأ على عكازه ويقترب مِني، يضع كفه السوداء الواهنة فوق كتفي، ويقول كأنه يناديني:

«يا عُمر».

ثم يثبِّت نظره عليّ بشكل يُخيفني:

«يا سارية الجبل».

وأنظر خلفي فلا أجد أحدًا، يمسح بأصابعه المرتعشة على شعر رأسي ويقول:

«لِمَ لم تكُ من النبيين؟».

تسلقتْ عيني عباءته حتى وصلت إلى خريطة ملامحه التائهة، ورأيتُ عينه الغائمة تنظر إلى السماء:

«النبيون! لماذا يا جدي؟».

وقعتْ يده من فوق كتفي وانصرف لحاله، ثم قال وهو يعطيني ظهره:

«لأكون من أتباعك المبشرين بالجنة».

يحمل فروة الصلاة ويدخل.

تتابعه عين أمي، وكما اعتادت الصمت دائمًا، انصرفتْ ولم ترد عليه.

في تلك الليلة رأيته يدخل عليّ في الظلام، من شِباك غرفتي الصغير، العنكبوت، كبير جدًا، وله هيئة كائنات الأحلام، أراه ولا أراه، أقبض عليه بكياني لا بيدي، لا أستطيع لمسه، يُحرك أذرعًا كثيرة وأرجلًا. نسيتُ أن أقول شيئًا ربما تصبح له قيمة فيما بعد، كان الشباك مُغلقًا.

استيقظتُ في الصباح، ليست لديّ رغبة في أن أسأل أمي عن العنكبوت، فقد رأيته واضحًا وأنا نائم، لكنني توقعت أن يسألني جدي أسئلته الغريبة، لذلك، ابتعدتُ عن الركن الذي يجلس فيه، اقتربتُ بعد الظهر من منامته فلم أجده، كانت لديّ رغبة في أن أقول لها ما حدث، ولم أتردد:

«أمي. لقد رأيتُ العنكبوت».

لم ترد، وتذكرتُ أنني لم أسمع الصوت الذي يطرح الأسئلة، فاقتربتُ منها جدا، خفت، لأول مرة أخاف من إجابتها:

«هل ذهب جدي للصلاة؟».

«جدك؟!».

قالتها ثم انصرفت ولم ترد عليّ.

الحافة والمُسدَّس

كل مساء يتكرر الحدث نفسه، يمسك الزوج مسدسًا ويصوبه تجاه رأسه، يُدخِل سبابته في دائرة الزناد ولا يضغط، لا تستوعب زوجته لماذا يفعل ذلك كل يوم حتى صار طقسًا معتادًا؟ تستمر المغامرة نصف ساعة من التوتر والقلق، يمسح بعينيه البراويز المعلقة فوق الجدران، يمر عليها مرور الكرام، ثم يتوقف أمام أحد البراويز، يتأمله طويلًا قبل أن يصوب فوهة مسدسه إلى رأسه، يُغمض عينيه ويزمّ شفتيه، ثم لا شيء بعد ذلك.

الموسيقى تنبعث من الراديو، الإيقاع هادئ، والليل يخلو من النجوم، وهُما ثابتان على الحال نفسها، في الصباح يمسك بالجريدة، يقلب فيها قليلًا ثم يلقيها بطول ذراعه، تسمع زوجته صوت خرخشة الورق، فتخرج من المطبخ، كل مرة عندما تسمعه تخرج، تمسك كوب الشاي، تضعه أمامه في صمت وترفع فنجان القهوة الفارغ.

المرة الأولى التي حاول فيها وضع حد لحياته كانت منذ أيام بعيدة، صرختْ زوجته وتجمَّع الجيران من مُختلف الأدوار، في المرة الثانية صرخت أيضًا، لكن لم يتجمَّع الجيران، أما في الثالثة فاكتفت بأن تضع كفها فوق شفتيها وتسحب شهيقًا عميقًا وقلِقًا، كل هذه المحاولات لم تجعلها مطمئنة بأن زوجها لن يتهور في لحظة ما؛ ويضغط على نصف الدائرة القاتلة.

لم ترضَ الزوجة أن يقتل زوجها نفسه بهذه الطريقة المبتذلة، التي تُنثر فيها الدماء في كل مكان، وتتطاير أجزاء من مخه تحت قدميها. كانت تقف على حافة الشِّباك وتهدده هي الأخرى بالانتحار إن لم يبعد المسدس عن رأسه، فيبعده بالفعل، وأحيانًا

يضعه على المنضدة، يجري باتجاه زوجته النحيلة، يحملها ليبعدها عن الخطر، يرفعها بين ذراعيه ويستقران فوق كنبة الأنتريه، ثُم يُكمِل شرب الشاي في هدوء.

من كثرة تهديده لها بالانتحار تعودتْ ذلك، تتميز المرَّات عن بعضها فقط في التفاصيل، ففي نوبة انتحار الأمس؛ كانت الزوجة تمسك بوردة في يدها وهي تصعد إلى سور الشباك، وعندما وجَّه زوجها المسدس في وضع إطلاق النار؛ نبهته أنه سينتحر بطريقة خاطئة، فيمكن أن تخرج الطلقة من صدغه الأيسر وتخرق صدغه الأيمن دون أن يموت، ولن يجني إلا ثقبين ونزف لتر من الدماء وعاهة لا تنفع معها عمليات تجميل، في تلك الحالة لن يمكنه التخلص من حياته، لكنه سيتخلص من وسامته فقط. وبالفعل، يعدل الزوج من وضعية المسدس ويسنده عند أعلى رأسه، فوق أذنه بقليل، لكن الزناد لم يتحرك من مكانه، ولا مرة واحدة.

في الصباح التالي قال لها:

«أشعر وكأنني متُّ».

فترد عليه بعد صمت طويل:

«وأنا أيضًا. تحديدًا منذ ذلك اليوم».

يمسك بالمسدس ويقلبه بين كفيه، ينظر إليه لا كآلة يمكنها أن تنهي حياة شخص؛ لكن كقطعة حديد صنعها الإنسان ليشعر بالموت في كل لحظة، دون أن يموت بالفعل.

كانت زوجته مخلصة لحالته بفضل العِشرة وانقطاعها من شجرة، ظلتْ تقاوم معه ما يتعرض له، لم تيأس إلا في هذه الأيام، أصبح زوجها يأتي تصرفات لا تُطاق، فقد حاول منذ أسابيع أن يقطع

شرايينه وفشل، وفكر منذ أيام في تناول سُم وخانته شجاعته، فصار المسدس هو البديل الصعب، لا يفارق يده كل صباح.

ملَّتْ زوجته من هذه الروتينية، فكَّرت أن يستبدلا الوسيلة، تمسك هي بالمسدس ويقف هو على حافة الشباك، جرَّب لمرة واحدة، لكنه لم يقتنع بالطريقة الجديدة، لم تعجبه المقايضة، فعاد كما كان لوسيلته القديمة التي اطمأن لها، أصبح يسمع كثيرا أثناء نومه صوت إطلاق رصاصة، ويرى في خياله شخصًا يترنح، حاول أن يبعد هذه الصورة مِرارًا، لم يستطع.

في الليلة التالية نام وهو ممسكٌ بآلته الحديدية القاتلة، وزوجته منكمشة في حضنه، وفي لحظة كائنة بَعد الزمن نفسه، هُناك، عند الثقوب السوداء، سَمِعَ صوت طلقة، حالة أشبه بسريان البنج في العروق، سَمِعَ الصوت جيدًا، استبعد أن تكون الطلقة قد أصابته، فهو لا يزال يستطيع السمع، واستبعد أيضا أن تكون الطلقة قد أصابتْ زوجته، فهي لا تزال نائمة في حضنه، بل إن إصبعه لم يضغط على الزناد من الأساس، المسدس ثقل فقط على يده فسحبها، واستقرتْ الآلة الحديدية فوق المنضدة الصغيرة، نامت يده بجوار كوبي الشاي الفارغين.

حاول أن يستيقظ كي ينظر من الشباك ليتقصى الصوت الذي دوى منذ دقيقة، لكنه لم يستطع النهوض، ولم يجد زوجته في مكانها.

عمتي والحمار

لِعمَّتي «سعديَّة» صور بالأبيض والأسود والبرتقالي الخفيف، كان جدي يعلقها على جدران الطوب الأحمر في نماذج صغيرة بالكاد يمكن رؤيتها.

دخلتْ ذات مرة دارنا الكبيرة وهي تبكي، مياه المطر تغسل ملابسها الفضفاضة وحِرامها الأسود:

«عبدُه طردني».

ويرد جدي:

«اقعدي».

ينظر في عينيها مباشرة، ثم يأمر جدتي أن تُحضِر العشاء، وتأكل عمتي سعديَّة، ثم تحكي لجدي:

«طردني الجبان والدنيا برد».

ويقول جدي:

«الصباح رباح».

يصب لها الشاي الذي جاءت به جدتي، دائما جدتي تعمله وجدي يصبه في أباريق صغيرة، وهو يختبر سخونة الإبريق بين شفتيه فاجأها بسؤال:

«من الذي سبّ الآخر منكما أولًا؟».

«سبّ؟».

أمسك بعصا وغرزها في الرماد الناعم الذي يسخن البراد:

«آه. فالغضب الصامت لن يصل بكِ إلى ترك الدار».

نظرت عمتي لجدي ولم ترد، لكنه كان يرقب نظراتها بثبات، الدم

يصعد إلى وجنتيها ببطء، تقترب منهما جدتي:

«أنت تعرف عبده يا شيخ، غشيم وحمار».

يسحب العصا من الرماد ويقطمها، يرمي نصفها بطول ذراعه، ويشير كإصبع بالنصف المتبقي:

«وأعرف ابنتي أكثر».

في الصباح يرسل عمتي مع جدتي، يقومان بأشغال كثيرة فوق السطح وحول البيت، بعد ساعات قليلة تدخل عمتي مهدودة البدن غائرة النظرة، تدخل ولا تلقي السلام على أحد، تنام على سرير مهمل بطريقة مرتجلة.

بعد الظهر يرسلني جدي لعبدُه زوج عمتي:

«قُل له كلِّم جدي».

ثم تجذبني اليد الكبيرة قبل أن أتركه وأطير:

«اسمع. لا تدخل. بلّغه الرسالة من الخارج».

أطير، ثم أسمع اسمي بالصوت العريض نفسه، وألتفت دون أن أعود ثانية:

«نادي عليه مرتين فقط. وإن لم يرد عُد إليّ بسرعة».

وأختفي من أمامه في لمح البصر، لا يشغلني إلا الرجل الحمار الذي ضرب عمتي وكسر لها الحَلَق، لن أضربه، فجدي لم يأمرني بذلك، يلتهب وجهي من البرد والغضب، أقف تحت المطر وأطرق الباب، لا يفتح عبدُه، أرى رأسه الكبير يطل من شباك حديدي صغير، وأسمع صوته الخشن المتقطع من الداخل:

«قل لجدك لن آتي».

ثم يغلق الشباك في وجهي.

لم يحدثني جدي عن هذا الاحتمال، أن يرد عليّ عبده من الشباك ولا يفتح لي الباب، تكوّنتْ الكلمات في فمي، ولم أتكلم، انصرفتُ بعد أن شعرتُ بأني عارٍ تحت الزخات الباردة، ورأسي كفُخَّارة نُسيت في فرن شديد الحرارة، توقفتُ أمام الدار لا أريد الدخول، كنتُ أجهز الكلمات التي سأقولها لجدي، نسقتها في شكل يُظهر رجولتي أمام زوج عمتي الذي رفض أن يفتح الباب لي. عندما دخلتُ لم أنطق بكلمة، فقد قابلني صوت جدي على الباب:

«لم يسمع منك؟».

«....»

لم يفتح لك الباب. هه؟».

جلستُ بجواره فتبخَّرت كل الكلمات التي رتبتها من رأسي، أخذتُ أؤرجح ساقيّ وأخبطهما ببطن الكنبة، كان الصوت المنتظم يغريني بأن أظل على هذه الحال أطول فترة ممكنة، دون كلام.

بعد يومين يأتي زوج عمتي ووجهه في الأرض، يجلس مع جدي، يقول له:

«سامحني».

ويرد جدي:

«على ماذا أسامحك يا رجل؟ نحن أهل».

وقبل أن يجلس زوج عمتي على المصطبة يمسكه جدي من يده:

«حاسب».

يخلع عباءته الجوخ السوداء ويفرشها له ليجلس عليها، وينحني

رأس زوج عمتـي أكـثر:

«كفاية إحراج».

ويرد جدي:

«هـل بيننـا هـذا الـكلام؟ نحـن أهـل. والمصطبـة مبلولـة. لا يصـح أن تجلـس في الطـين».

ويقول زوج عمتي:

«بعد إذنك».

يمد جدي رأسه للأمام كجمل:

«ها».

يُكمل زوج عمتي جُملته:

«عاوز سعديَّة».

«لا».

يقـول جـدي. يعـود رأس الجمـل إلى وضعـه الطبيعـي، يرفـع زوج عمتـي نَظَـره عـن الأرض، وقبـل أن يـرد يُضيـف جـدي:

«لن تخرجا من هُنا إلا بعد العَشاء».

وجلسنا جميعا حول مائدة الطعام.

كنتُ في العاشرة، اقتربت من جدي وقلت:

«بهـذه السـهولة يأخذهـا؟ إنـه يضحـك عليـك. عمَّتـي تقـول عنـه بأنَّـه طويـل اللسـان وجبـان».

يشد جدي على ذراعي ويُخفِض من صوته:

«اسكت يا ابن الكلب. بدري على ما تفهم».

يقوم زوج عمتي ليغسل يده من أثر السمين، وأُكرر:

«هـذا الرجـل يضحـك عليـك يـا جـدي، لا تُعطـه عمتـي. ألم تقـل بنفسـها أنهـا لا يمكنهـا العيـش معـه أبـدا؟».

ويقول جدي جملة تجمع بين قوة عظيمة وضعف شديد:

«انظر إلى عمتك بالداخل يا مُغفَّل».

وأتسـلل إلى الداخـل، فأراهـا واقفـة أمـام مـرآة مكسـورة، تُخـرِج مـن تحـت الإيشـارب خُصلِـة شَـعر، تُمَوِّجهـا بثـلاث بِنَـس طويلـة سـوداء، وتحـك خدَّهـا بورقـة دخـان حمـراء، تـرج المكحلـة وتُغمِـض عليهـا عينهـا ثـم تسـحبها بعنـف مـن بـين جفنيهـا.

وأعـود إلى جـدي، وجهـي يُخـرِج صهـدا، ويعـود رأسي يشـبه فخـارة تتفحـم في فـرن، ويسـألني:

«ها. ماذا رأيت؟».

وأقول:

«عمتي قليلة الأدب».

يضحك جدي وهو يدس كرة صغيرة من المضغة في فمه:

«لماذا يا أبو العُرّيف؟».

وأتردد قبل أن أقول:

«تضع الأحمر والكحل».

تزداد الضحكة، ويتسع فمه المظلم الغويط:

«ما دامتْ تفعله من أجل زوجها فهو الأدب نفسه يا مُغفّل».

ويخـرج زوج عمتـي كديـك منتفـخ، وخلفـه بنصـف خطـوة تسـير عمتـي كبطـة سـمينة، تحمـل فـوق رأسـها قفصًـا جمعـت محتوياتـه كلهـا مـن الـدار، يبتلعهـما الظـلام ويتوهـان بـين خيـوط المطـر الغزيـر.

هي وهو

عـمّ الدمـار المدينـة كلهـا، الأبـواب واقعـة عـلى الـركام، ومواسـير المياه مخلوعـة، المنـازل المتبقيـة بـلا ميـاه أو طعـام، والحقـول بـلا زرع أو بهائـم، هربـت الـكلاب واختفـت الحـشرات تحـت الرمـاد، حتـى الهـوام، غيَّبهـا الغبـار الكثيـف الـذي ظـل لأيـام طويلـة يطـير فـوق الجـمادات، وهنـاك في البعيـد بعـض طيـور قليلـة جـدًا، كأنهـا جـاءت لـترى مـا حـدث عـن قُـرب.

التفاصيـل التـي سـاعدت عـلى الوصـول إلى هـذه الحـال لا تُـرى، ولا أثـر لإنسـان واحـد عـلى مـدد الشـوف، كل ذلـك لم يتوقعـه شـخص، فـلا أحـد كي يتوقـع، وكل مـا حـدث لم يدوّنـه إنسـان، فـلا أحـد كي يـدوِّن، وتلـك هـي الكارثـة الحقيقيـة، ألَّا يعـرف مَـنْ يأتـون بعـد بمـا حـدث قبـلًا، أو مـا يسـميه النـاس مجـازًا، تاريخًـا.

لكـن، هنـاك، عنـد أحـد الأبـواب المخلوعـة، بالضبـط مـكان الحلـق الخشـبي؛ كان رجـل وامـرأة يقفـان، لا يُعـرف مـن أيـن جـاءا، كانـت المـرأة تمـد يدهـا إلى مسـتوى فـم الرجـل، وهـو يقبلهـا، يرتديـان ملابـس نظيفـة، كأنهـما سـقطا منـذ ثانيـة واحـدة مـن كوكـب مُعقَّـم وقريـب مـن مركـز الأرض، لم يتأثـرا بالدمـار الـذي لحـق بالمدينـة، بـل لم يفكـرا فيـه، راحـت هـي ترفـع طـرف تنورتهـا وتتخطـى الكتـل الجامـدة مـن الجـدران المهدمـة، وهـو أيضـا، كان يأخـذ بيدهـا حتـى يبـدو رقيقًـا.

عندمـا سـألتْه عـن الوقـت نظـر إلى معصمـه، فلـم يجـد السـاعة، ضحـك، وبادلتـه الضحكـة:

«إن الزمن ليس له وجود إلا في أذهاننا».

أصغت إلى كلماته، وردت:

«هل يكون حساب الوقت مضحكًا؟».

هـزّ رأسـه، فَجَـرَتْ، تبعهـا وهـو يقفـز ويتخطـى كل مـا يقابلـه مـن الـركام المهـدم، جريـا حتـى هدهـما التعـب ودائريـة الأرض التـي لا تنتهـي، فعـادا مـن جديـد إلى البـاب المخلـوع، وغاصـا بالداخـل لمـدة لا أحـد يعلمهـا ممـن يحسـبون الزمـن بحركـة العقـارب.

خرجـا بعـد ذلـك وهـما أضخـم قليـلًا، هـو بديـن وهـي منتفخـة، وخلفهـما نموذجـان بشريـان يحبـوان، ولـد وبنـت، يشـبهانهما جـدًا، أو قليـلًا، حسـب زاويـة الرؤيـة ومـزاج الملامـح.

بـدأت بقايـا الجـدران المهدمـة في الاختفـاء، والغبـار ألصقتـه الأمطـار الجديـدة بـالأرض القديمـة، وحلـق البـاب رُكِّـب في مكانـه بيـد أقـوى مـن أيديهـما وأكـبر، حتـى البـاب، أصبـح لـه صـوت حـين يفتـح أو يُغلـق، وعـادت حديقـة البيـت الصغـير تُزهـر، والحجـارة التـي كانـت متكومـة وراكبـة فـوق بعضهـا بعضـا؛ نُسِّـقتْ حـول الأشـجار القصـيرة وحمتهـا مـن الريـح، أمـا مـا دون ذلـك مـن أشـياء مفتتـة مثـل المسـامير ونتـف الملابـس وريـش الطيـور الميتـة؛ فقـد دكَّتـه أقـدام الوافديـن الجـدد وغـاص في باطـن الأرض، لم يمـت، ولكنـه يسـتريح لبعـض العصور، حتـى يـأتي دوره في تشـكيل معنـي جديـد لا يقـدر عـلى اسـتيعابه مَـنْ طمـروه.

بعـد أن أزهـرت الحديقـة وانتقـل لونهـا مـن الرمـادي القاتـم إلى الأخـضر الفاتـح؛ غـاص الأربعـة بالداخـل، ثـم خرجـوا سـبعة، الفتـاة التـي قبَّـل الشـاب يدهـا عنـد البـاب المخلـوع أصبحـت عجـوزًا تذروهـا الريـاح، تمسـك بعصـا معقوفـة لهـا رأس أسـد عنـد المقبـض وكعـب حديـدي يـدق الأرض، أمـا الشـاب الـذي قبَّـل يدهـا فلـم يخـرج معهـا، وهنـاك في الخلفيـة شـابان يخرجـان، مـن خلفهـما يحبـو أربعـة أطفـال

يلعبـون في الحديقـة ويتسـلَّقون الأشـجار القصـيرة.

أحـد الصبيـة يمسـك بالعصـا التـي لهـا رأس أسـد وكعـب حديـدي، يجذبهـا مـن طفـل آخـر أصغـر منـه، يقـول لـه بأنـه سـيحتفظ بهـا كذكـرى مهمـة مـن جدتـه التـي لم يرهـا.

يختفـي كل أثـر للدمـار القديـم في أرجـاء المدينـة؛ يعمـرون الجبـال والصحـراء لتصبـح مروجًـا، وبعـد أن يطمـئن سـاكنوها ويبتهجـوا، تأتيهـم مـن جديـد أنبـاء الحـرب، فالمـروج الخـضراء وبسـاتين الفاكهـة التـي لديهـم لا توجـد في مـكان آخـر، وأصحـاب الأماكـن الأخـرى يطمعـون، فهُـم لا يزرعـون أو يحصـدون، بـل يصنعـون أدوات الحـرب بمهـارة، ولهـم قـدرة فائقـة عـلى المراوغـات الكلاميـة.

ودقت الطبول على أبواب المدينة ذات فجر.

أغـاروا عليهـم ودمـروا كل مـا قابلهـم مـن خَضـار، زحـف زبـد البحـر الأبيـض عـلى الشـواطئ، اسـتحالت موجاتـه البيضـاء لأعمـدة مـن ملـح، وقعـت عـلى الصخـور فتفتـت، الزخـرف الوحيـد الـذي بقـي كان زخـرف الطبيعـة، انحنـاءات البحـر ولـون السـماء وصفـرة الشـمس، أمـا الأرض فقـد تكومـت بيوتهـا تـلالًا مـن حجـارة وجـذوع أشـجار وخِـرق باليـة، واسـتحالتْ مروجهـا إلى عصـف مأكـول، وحُليّهـا تناثـرت، المكاحـل اندثـرت بـين الأتربـة، والمرايـا تهشَّـمتْ ورجعـت لنشـئها الأول، حبيبـات مـن رمـال.

عـادت المدينـة تغـوص في صمتهـا البعيـد مـرَّة أخـرى، لكـن عنـد أحـد البيـوت المُهدَّمـة كان هنـاك بـاب واقـع، الحلْـق مائـل عـلى جانـب واحـد كلسـان ذبيحـة. عنـد فتحـة البـاب الخاليـة يقـف شـاب وفتـاة، يرتديـان ملابـس نظيفـة، ولا علاقـة لهـما بمـا يحيـط بالمـكان مـن دمـار، هـي ترفـع يدهـا بالقـرب مـن فمـه، وهـو يقبلهـا بـلا هـوادة، ثـم

يدخـلان مـن الفتحـة السـوداء، الـبرزخ القريـب، ويغيبـان بالداخـل، لم تعـد تذكـر مـا نسـيت، ولم يعـد قـادرًا عـلى نسـيان مـا يذكـر، اختلـط موتـه الأخـير بولادتـه الأولى، وهـي لم تتذكـر مـا أراد أن يقولـه لهـا، تنسـاهما الخرائـب والدمـار بالخـارج، يطويهـما عـبّ الزمـن الفضفـاض بالداخـل، ويغيبـان في سـخونة الثقـب الأسـود.

الحَجَر والقتل

صلينا العيد وخرجنا من المسجد، أسبِقُ أبي بهرولة في طريقي إلى البيت، فلابد أن أرى الجزار وهو يذبح العجل. لكن أبي لم يتجه إلى البيت:

«أين سنذهب؟».

ويرد أبي:

«صبرك بالله».

نمشي مسافة طويلة، نقف أمام باب خشبي مطبوع عليه كفوف من دم ذبيحة قديمة، يطرقه أبي بكل قوته، ويخرج إلينا رجل قريب من عُمر أبي، يلبس قميصا أبيض وبنطلون جيش. ودون كلام تناوله امرأة بدينة جرابًا أسود من قماش سميك، يسحبه الرجل ويخرج معنا، يمرّ على صبيين صغيرين في عشَّة مجاورة، ثم نذهب جميعا إلى البيت.

من خلال كلام أبي مع الرجل طوال الطريق أعرف أنه الجزار، أخذتُ أتأمله بزهو وإعجاب، فقد كانت المرة الأولى التي يشترى أبي لنا عجلًا وليس خروفًا.

دخلنا، وجدنا جلبة كبيرة بانتظارنا وبعض أولاد الجيران يلعبون، العجل في حوش كبير بجوار بيتنا، أمي تقف خلفه وإخوتي من حوله مبعثرون، اقترب الرجل من العجل وتأمله طويلًا:

«لا ينفع أن أذبح هذا العجل».

«لماذا؟».

يسأل أبي الجزار، ونلتفتُ جميعا إليهما، تنخفض أصواتنا بالحديث والأسئلة كي نعرف السبب:

«هـذا العجـل قرنـه مـتر. يعنـى خطـر. وحركتـه الكثـيرة لا تُطمـئن. اعـذرنى يـا حـاج».

«سنعطيك ما تريد يا معلم».

«الضعف».

«موافق».

«وحساب الصِبيين».

ينظر للصبيين:

«موافق».

كانـت هـذه هـى المـرة الثالثـة التـى يرفـض فيهـا جـزار ذبـح هـذا العِجـل، فوافـق أبى عـلى كل شروط الرجـل دون فِصـال.

لم يعـد للجـزار أى حجـة. يفتـح الجـراب القـماش ويخـرج منـه العـدة، يناولـه أحـد الصبيْـين حبـلًا طويـلًا. يقـترب الجـزار أولًا مـن الهـدف الذى يقفـز بقائميـه الخلفيـين، لكـن رفسـة قويـة طـارت فى الهـواء قبـل أن يلمسـه، يناولـه الصبـى الثـانى سـكينا طويلـة يبـدو أنهـا للمناوشـة، نبتعـد جميعـا مسـافة عـشرة أمتـار، نريـد أن نتفـرج عـلى الخطـر دون أن يمسـنا، كفيلـم سـينما يحفـل بالمعـارك، نقـف عنـد بـاب الحـوش، ومـن هنـا بـدأتْ المعركـة.

خبـأ الجـزار السـكين عـن عـين الأضحيـة، وبرغـم ذلـك فقـد هجـم عليـه العجـل فى أقـل مـن ثانيـة، كاد القـرن المُخيـف ينغـرز فى ظهـر الجـزار، ابتعـدَ مُسرعـا ثـم لـف بسرعـة، عاجـل الحيـوان الـشرس بطعنـة فى أنفـه، فانتبـه العجـل وأخـذ حـذره بعـد أن شـمّ رائحـة الـدم، ثـار وكاد يقفـز مـن فـوق السـور الطينـى القصـير أو يحطمـه، ابتعـد الجـزار بصبيـه وأسـلحته إلى الخلـف، حتـى خرجـوا مـن الحـوش نهائيـا، اقـتربَ

مـن أبى وعلامـات التوتـر واضحـة عـلى ملامحـه، والعـرق بلـل حـواف شـاله الأبيـض:

«عاوز حجرين قدم».

يوجـه الجـزار كلماتـه لأبى وهـو يلهـث، ويتأكـد أبى مـن صـدق مـا سـمع:

« حجرين قلم؟!».

«يا حاج حجرين قدم».

وعندمـا يتأكـد مـن فهـم أبى لمـا طلـب يجلـس فى ركـن بعيـد، يـشرب كـوب شـاى مدَّتـه إليـه يـدٌ مـن الجمهـور الكثـير، يرشـف الشـاى ويعقد الحبـل عـلى شـكل «خيَّـة» ثـم يصنـع واحـدة أخـرى ويعقدهـما برباط واحـد طويل.

يرسـلنى أبى لأشـترى الحجريـن، طـوال الطريـق وأنـا أفكـر فيـما سـيفعله الجـزار بحجـر القـدم، رحـتُ فى جـرى وجئـتُ فى جـرى، يعطـى أبى الحجريـن للرجـل، يقـوم الجـزار ويمـشى عـلى أطـراف أصابعـه، يهمـس الأرض حتـى يصبـح خلـف العجـل تمامـا، لـو هـزّ ذيلـه الآن سـيلطم وجهـه، يسـند الجـزار قبضتيـه بالحجريـن فـوق ظهـر العجـل، تمامـا عنـد العظمتـين البارزتـين، أعـلى نقطـة، وظـل يحكَّهـما بشـكل بطـىء حتـى همـد العجـل تمامـا عـن الحركـة، فكَّـه الـذى كان منشـغلا فى مضـغ البرسـيم توقـف، أنفـه المصـاب نسـيه مؤقتـا، كانـتْ لذَّتـه واضحـة بدليـل ثباتـه وعـدم حركتـه.

فى هـذه اللحظـة تسـلل أحـد الصبيـين تحـت بطـن العجـل، رفـع القائـم الأمامـى وربطـه فى الخلفـى، والجـزار لا يـزال يحـك ظهـره بالحجريـن. كان الصبـى الآخـر يسـحب الحبـل فيربـط قائـم العجـل

الأمامى بالخلفى، تقل المسافة ولا يتحرك الثور الذى كان هائجا منذ دقائق، مخاط شفاف ينزل من فمه وخط دم متجلط عند أنفه.

قلَّ الحك فانتبه العجل، ولما انتبه عاد الجزار يحك بقوة، خارتْ قوى العجل وفَقَدَ ثورته ببطء، فقدها بتكثيف اللذة والخدر. سحب الصبى الحبل أكثر فانتبه العجل لسحب قائِمه الأمامى من مكانه، لكنه لم يهتم كثيرا، توقَّف الجزار عن حك ظهر العجل بالحجرين وابتعد قليلا، نقر كتف الصبى وسحبه للخلف بهدوء، فسحب الصبى صديقه معه. العجل وحده ينظر إلينا، كأنه يسأل أين ذهبتْ اللذَّة؟ كان مربوطًا بحبل متين، وطرف القيادة فى يد الجزار:

«أول ما يقع تقعدوا كلكم فوقه مرَّة واحدة».

قال الجزار وأخذنا الدرجة القصوى للاستعداد. فى غفلة، شد مع الصبيين الحبل بقوة فترنحت قوائم العجل الأربع، شدوا مرَّة ثانية فانكفأ على بوزه، حتى سمعنا اصطكاك أسنانه بالأرض، بعد أن وقع جرينا بشكل حماسى غريب لنجلس فوقه، جلستُ أنا على بطنه الطريَّة الدافئة، كان يصدر صوتا مخيفا، وبطنه يعلو ويهبط، لا أعرف لماذا أعطيتُ ظهرى للجزار، لم أود أن أراه وهو يُخرج السكين، بعد قليل توقف الصوت المخيف وصدر بدلا منه شَخرة وحشرجة، ثم لطمنى من الخلف سائل هادر وساخن.

أثيرة وروْحيَّة

بدأت وقائع القصة عندما زار صديقه ذات مساء.

وما الجديد؟

فالشيخ قطب يزور صديقه كل ليلة تقريبًا، يشربان الشاي والينسون ويقضمان أعواد البقسماط أبو سمسم، يتحدثان عن أمور الحياة وتصاريف الزمن، يحكيان ما يَرِدُ في الأحلام، يربطانه بالواقع حتى ولو تلفيقًا، تدور الجوزة ويعلو الدخان، يزداد السكون ويقطع الصمت لسانان.

وما الجديد أيضا؟

فالجوزة تدور كل ليلة بينهما، وهذه الموضوعات هي التي يفتحانها غالبًا ويغزلان منها أحاديث ممتدة لا تنتهي، الجديد أن وجه الشيخ قطب هذه المرَّة كان مسلوخًا.

بلون قشرة البرتقال الناضج تساوت ملامحه، قابله الشيخ إبراهيم بابتسامة بشوشة كعادته، لم يرعبه منظر وجهه المسلوخ، لكنه قال له بهدوء:

«لن أسألك ماذا حدث، فأنت ستحكي لي من تلقاء نفسك كما تفعل كل ليلة، أليس كذلك؟».

جلس الشيخ قطب أولًا واستراح، كأنه جاء من رحلة بعيدة، ثم راح يتحدث إلى صديقه الوحيد:

«آه يا شيخ، هذه المرة تختلف عن كل المرات، رأيتني أنزل إليها تحت، لكنني في الوقت نفسه أصعد إلى أعلى، تقترب روحي من شموس كثيرة ولا تحترق، هل رأيت من قبل روحا تحترق؟ أبتعدُ عن الكوكب الأزرق حتى يصير نقطة حبر مضيئة في مسبحة

الكـون الكبـير، ليتنـي كنـتُ شـاعرا كي أسـتطيع أن أصـف لـك عـن طريق الكلـمات مـا صادفتـه في تلـك الرحلـة المثيرة، أو ليتنـي كنـتُ موسـيقيًّا حتـى أسـتطيع عـزف مـا صادفنـي مـن أصـوات لهـا حـس الألـوان، لابـد أن تـرى بنفسـك مـا رأيتـه يـا شـيخ إبراهيـم حتـى تصدقنـي».

«أنا أصدقك دون أن أرى».

يكمل الشيخ قطب:

«كان وجـودي بالقـرب مـن أثـيرة فـوق إدراكي، ولأول مـرة أراهـا ليسـتْ مجـرد كائـن مـن عـالم غـير عالمنـا، فعندمـا رأيتهـا مـرة واحدة في أحلامـي الدنيويـة المشوشـة كانـت سـاطعة وباهـرة، اللؤلـؤ يخـرج مـن بـين شـفتيها، كلماتهـا حـروف مضيئـة عـلى شـكل كلـمات سـماوية».

يسحب الشيخ إبراهيم نفسًا وينفخه لأعلى ويقول:

«منـذ شـهر أو أكـثر وأنـت تحـكي لي حكايتـك معهـا، ولكـن أليـس مـن الغريـب أن تخـرج معـك من الأحـلام؟».

عندما سأله صديقه توقف عن الاسترسال في الكلام وتنهَّد:

مـد يـده وتنـاول الغابـة، مسـح فوهتهـا وقـال قبـل أن يضعهـا في فمـه:

«وربما أنا الذي دخلتُ إليها».

يمـط الشـيخ إبراهيـم شـفته السـفلى ويرفـع كتفًـا واحـدة قليـلًا، في تلـك اللحظـة تكـون الغابـة مسـتقرة في فـم الشـيخ قطـب، يسـحب منهـا نفسـا يشـفط صدغيـه الملتهبـين للداخـل:

«أكمل».

يقـول الشـيخ إبراهيـم، ويـرد صديقـه بعـد أن يطـرد الدخـان مـن رئتيـه:

«عندما دخلتُ بالأمس على أثيرة قالت لي لا تقرب زوجتك الأولى. لكنني يا شيخ إبراهيم لم أستطع فعل ذلك، فروحية زوجتي وابنة عمي وأم أولادي، وستصبح جدَّة بعد سنة أو سنتين، لا يمكن لي تركها حتى ولو أزهقوا روحي، ليس لأنني الآن أعشقها، فقد ابيض كل شعرها ونما شعر آخر في وجهها لا تخطئه عين، لكن لأن للعشق في قلبي معها منزلة الذكرى الجميلة؛ عصيتُ أثيرة وكذبتُ عليها. لم أكن أعرف أنهم في تلك الطبقات البعيدة يعلمون كل ما نفعله دون أن نخبرهم به. وعرفتْ أنني فعلتُ ما نهتني عنه».

يعمل الشيخ إبراهيم الشاي:

«ولكننا اتفقنا أول أمس على أنك لن تعصي أوامر أثيرة لأنك تحبها هي الأخرى، ها. أكمل. ماذا حدث بعد ذلك؟».

ويعود الشيخ مسلوخ الوجه ليربط ما انقطع من حديثه:

«الذي اكتشفته عندما كنت أنزل إلى أثيرة أن ملامحها تتشابه جدا مع ملامح بنت كنت أحبها منذ ثلاثين سنة، وبذلك استحوذتْ أثيرة على رقَّة قلبي بمنزلة امرأتين، حب قديم وعشق جديد، آه يا شيخ، والله لو تدري بالنار المشتعلة بحب الاثنتين، لا أستطيع الابتعاد عن طيف إحداهما إلا بموتي، حتى موتي، أستغفر الله العظيم، يُهيأ لي بأنه لن يمنعني عن التفكير فيهما معا».

يغير الشيخ إبراهيم الحجر ويشفط نفسًا طويلًا فتتوهج الجمرة ويشتعل الحجر:

«وماذا حدث عندما عصيت زوجتك التي تنزل إليها كل ليلة؟».

يأخذ الشيخ قطب نصيبه من الحجر الجديد أولًا:

«عندما نزلتُ إلى أثيرة كانت بانتظاري، اخترقتُ سبع طبقات

لـلأرض في لمـح البـصر، كأننـي أغـوص في طبـق زبـادي، وأشـم رائحـة ياسـمين، واللـه ياسـمين يـا شـيخ، مـا إن وصلـتُ حتـى تلقفتنـي يداهـا البيضـاوان وداعبـت وجهـي بأظافرهـا الفضيَّـة، بعـد أن قضينـا وقتًـا طيبًـا تركتنـي وانصرفـتْ، وبعدمـا انصرفـت نمـتُ، لكننـي مـا إن نمـت؛ واللـه يـا شـيخ إبراهيـم، لم أدرِ بنفسـي ولا بمـن حـولي، رحـتُ في دنيـا غـير الدنيـا، طبـول ومزيـكا وألـوان ومخـادع مـن حريـر، وشراب تسـتحوذ رائحتـه عـلى الحـواس فـلا يُعـصى لهـا أمـر. لم أخـرج مـن هـذه الحالـة السـحرية إلا عـلى صـوت يشـبه طقطقـة حطـب جـاف يشـتعل، ومـا إن اسـتيقظتُ حتـى وجـدت السريـر يحـترق بي، وفيـما لحمـي يُشـوىَ وقفـتْ أثـيرة قريبـة مِنِّـي وهـي تضحـك وتقـول بصـوت رنـان يملأ فراغًـا كالـذي بـين السـماء والأرض: «لـو أن لي سـلطانًا عـلى روحيتك تلـك لجعلتهـا تُرابًـا مثـل الـذي خُلقتـما منـه. ولأذبتهـا في إنـاء مـن نـار ورميـتُ رمادهـا في البحـر، لكننـي لا أقـدر إلا عـلى مـن زوجتـه نفسي وتعطـرت مـن أجلـه، وعزفـتُ المزيـكا لمسـامعه ونسـجت الألـوان لعينيـه، لا أقـدر إلا عليـك أنـت»، عندمـا قالـت ذلـك وقـع عـليّ سـهم اللـه، وكأن الجـن قـد لبسـني يـا شـيخ إبراهيـم واللـه».

رد الشيخ إبراهيم ببرود:

«لقد قلت لي من قبل أن أثيرة نفسها جن، فما الجديد؟».

توقـف الشـيخ قطـب عـن الحـكي وعـن الشـفط مـن الغابـة، احتقنت ملامحـه وقال:

«الجـن يسـكن خيالنـا كـما لـو كان كائنـا مشـوَّها، لـه قرنـان في رأسـه وأظافـر أطـول منـه، لكـن الجـن الـذي هـو أجمـل مـن البـشر كان بعيـدا جـدا عـن خيـالي».

«وماذا قلتَ لها؟».

يرشف الشيخ قطب من كوب الشاي:

«قبل أن أقول شيئًا فتحتُ عيني فوجدتُ نفسي أرقد بجوار روحية ابنة عمي، كيف صعدتُ طبقات الأرض السبع مرة أخرى، كم استغرقت رحلتي من تحت إلى فوق؟ والله لا أعلم، أحسستُ وجهي ملتهبًا، لم أشعر بصعودي أبدًا، وجدتني نائما بجوار روحية أتحسس الملاءة وأتأكد من وجودي بالفعل، رأتني نائمًا بجوارها وأنا على هذه الحال فصرخت، حتى أنا؛ عندما لمحتُ وجهي في المرآة خفتُ من شكلي، رأيتني، كما تراني أنت الآن، مليئًا بأصداف برتقالية كجلد سمكة بربوني، لا أطيق أن يلمسني أحد. تخيل، إنك الوحيد الذي لم يصبه الرعب من ملامحي».

رشف الشيخ إبراهيم من كوبه:

«لأنني الوحيد الذي أثق بما تقول، أثق بخيالك، أصدق حكايتك وأؤمن بها دون حاجة إلى براهين يطلبها من لا يعرفونك جيدا مثلي، أنا الواقع الأرضي وأنت الخيال الجامح، لا يمكن لأحدنا العيش بدون الآخر أبدا».

ينتبه الشيخ قطب ويحملق في صديقه:

«ولكن ما أقوله لك حقيقة وليس خيالًا».

يبتسم الشيخ إبراهيم:

«أعرف أعرف. لكن أكمل. قُل لي. كيف استطعت أن تفلت من أثيرة وتعود إلى روحية؟».

رد الشيخ قطب يد صديقه بالشاي، فقد كان يستعد بشكل كبير لتكملة الحكاية:

«فاتني أن أقول لك شيئًا مهمًا. بعد أن أصبحت لا أرى أمامي

إلا الألـوان ولا أسـمع إلا المزيـكا والطبـول؛ شـعرتُ بأننـي طائـر كبـير الحجـم مثـل جبـل، وأخـذتُ أرفـرف وأرفـرف».

عندمـا قـال هـذه الكلمـة قـام مـن مكانـه ورفـع ذراعيـه كمـن يسـتعد فعليًـا للطـيران. ثـم أكمـل:

«وعندمـا خرجـتُ مـن أجـواء السريـر الحريـري الـذي كنـتُ غاطسًـا فيـه مـع أثـيرة؛ انتقلـت بسرعـة الـبرق إلى سريـري الحديـدي مـع روحيـة، تلبسـتني روح أثقـل وبـدأت أفكـر بشـكل متـزن، لكـن يـا شـيخ إبراهيـم مـا كنـتُ أصـل إلى عـالم حتـى أشـتاق للآخـر، ومـا أن يأخـذني صـدر واحـدة حتـى أهفـو إلى صـدر الأخـرى، وشـعرتُ بـأن روحـين تسـكناني، أو روح واحـدة منقسـمة، نصفهـا مأخـوذ مـن طائـر، ونصفهـا الآخـر مـن وحـش كاسر، أمـا ذلـك الإنسـان الـذي نطلـق اسـمه عـلى أنفسـنا فـلا وجـود لـه إلا في خيالنـا، وأن ذلـك الاعتقـاد الخاطـئ هـو الـذي يحـول أرواحنـا إلى خرائـب».

«خرائب؟!».

قالها الشيخ إبراهيم، فجلس الشيخ قطب، مؤجلًا الطيران ورد:

«نعـم فأنـا أشـعر بروحـي وكأنهـا مُنتزعـة مـن عـدة كائنـات لطيفـة، لا تتحـدَّث لغـة الـكلام».

ركـن الشـيخ إبراهيـم الجـوزة في اسـتراحة قصـيرة، ثـم قـدَّم لصديقـه بعـض عيـدان البقسـماط، تنـاول الشـيخ قطـب عـودًا وأخـذ يقـشر السمسـم منـه بـلا وعـي كامـل، ثـم قـال:

«عندمـا كنـتُ أذهـب إلى أثـيرة أُصبحُ كالمربـوط بروحـي، روحـي غـير المحـدودة، التـي تشـمل الزمـان والمـكان ومـا بينهـما، وعندمـا تتلقفنـي روحيـة أصبـح كالمربـوط بجثتـي، ثقيـلا وأشـعر بـكل مـا يحـدث مـن

حولي، وهذا أيضا له حلاوته يا شيخ والله، إذ كيف أشعر بأنني أنتمي للأرض وأدب عليها بلا جثة ثقيلة، وكيف أشعر بأنه يمكنني تغيير ذلك الواقع إلا بروح خفيفة لا تعي فعليا كل ما يحدث من حولها».

«لم تقل لي حتى الآن ماذا حدث عندما عصيتَ أثيرة؟».

عادت الجوزة للدوران بينهما من جديد، سحب الشيخ قطب نفسًا عميقًا وزفره مرة واحدة قبل أن يقول:

«مراحل الانتقال من تحت الأرض إلى فوقها هي العملية الأصعب دائما، كنتُ أشعر وكأنني نبتة تجاهد كي تخرج من الأرض، ثم تتأهب لتكون طعامًا لرجل يستعد للعشق، تتزين عاشقته لاستخراج خليفته في الأرض، عملية مُعقَّدة أشعر خلالها بأنني أنصهر، أخترقُ غلافًا سميكًا من أجل تبديل العالم، من أجل التحول من شيء إلى شيء آخر، وربما من لا شيء إلى شيء، رحلة أحب فيها نفسي وأكره المرآة، فهي أسخف ما اخترعته يد البشر، بدونها يمكن للإنسان أن يتخيل نفسه أي شيء؛ طائرًا فوق جبل، حشرة في بطن جحر، سحابة هائمة. ولولا هذه المرآة لما عرفتُ بأن أثيرة حرقتني وسلخت وجهي، فأنا لم أشعر بأي ألم، لكن منظري فقط هو الذي أرعبني، المرآة حجَّمتْ الخيال وحبست كل واحد منا داخل جثته».

كان يفتح فمه بصعوبة، وضع عودًا من البقسماط وأخذ يقضمه بأسنانه الأمامية، فسأله الشيخ إبراهيم:

«مشكلتك الوحيدة يا شيخ قطب أنك لا تستطيع التعبير عن مرحلة التبديل التي تحدث لك بشكل دائم، ألم تقل لي بالأمس أنك بين أثيرة وروحية تتنقل كل ليلة؟».

رد بعد أن أكل رُبع عود البقسماط فقط:

«روحي الحائرة هي التي تتنقل بينهما».

«وكيف تعرف وأنت هُنا بأنك ذهبت إلى هناك؟».

«أنا لا أعرف شيئًا. كل ما في الأمر أن الإشارة تأتيني ولا أردها، فعندما تعقد أثيرة العزم على قضاء ليلة معي لا أستطيع ردها إلا وهي مرضية، أنزل إليها من طبقات شفافة لا يستغرق اختراقها وقتًا يذكر، تستقبلني بالأناشيد الشجية، تطوف حولنا المزامير والنقَّارات، أجدها بانتظاري في أحسن هيئة وأجمل حُلة وأرق عطر، ويمكن لك يا شيخ أن تُخمن الباقي، أما عن الحالة التي أصير إليها فهي مزيج من سطوع ضوء وروعة ألوان لابد لك أن تراها بنفسك حتى تصدقها».

«وماذا لو قضيت ما تبقى من حياتك مع أثيرة؟».

فكَّر الشيخ قطب قليلًا:

«ستشف روحي حتى تصبح مادة رخوة يمكنها أن تستحيل إلى جميع الأشياء».

«وماذا لو قضيت ما تبقى من حياتك مع روحية؟».

ستصبح روحي مُعتمة وثقيلة، ساكنة يفنيها العبوس، فهي في تلك الحال لن تمتلك القدرة على إمكانية التحولات المدهشة».

«وهل أنت مطمئن لأثيرة؟».

«نصف اطمئنان. كما هي الحال بالنسبة لروحية. نصف اطمئنان أيضًا».

ثم بدأت ملامحه تتبدل وتحتقن:

«الآن جاءت الإشارة».

«هل ستذهب؟».

«نعم. لا أستطيع رد الخيال».

قام الشيخ قطب وهو يحجل. يمشي باتجاه الباب دون وعي كامل، ثم غاب في ظلمات الخارج.

البديل والمُحتَمَل

الرجل النظيف نائم على سرير معقم، والمصابيح المتوهجة أحالت الليل إلى نهار، سأل المريض النظيف طبيبه المبتسم:

«وهل تضمن نقاءه ونظافته يا دكتور؟».

اتسعتْ ابتسامة الطبيب دون أن يرد، بعد قليل دخل زميل له أكثر حيوية، أخرج من شنطته الصغيرة سرنجة وعبأها بسائل أصفر، شغَّل الرجل الأول الذي اتسعت ابتسامته الأجهزة والشاشات، اقترب الطبيب المليء بالحيوية من المريض النظيف وغرز سن الحقنة في ذراعه، قبل أن يسري البنج في عروقه ودمه سأل الطبيب مرة أخرى:

«هل تضمن نقاءه ونظافته؟».

يخرج زميله طبيب التخدير، يغلق من خلفه الباب، ويرد الطبيب الوحيد في الغرفة على مريضه النظيف:

«إنه صابح. وحياة أولادي يا باشا».

بدتْ محتويات الغرفة متداخلة ومشوشة، الستائر النظيفة تختلط بالدولاب المعقم، المصابيح تلمع وتبرق، ثم تخفت وتُطفأ، عند هذه الحالة يُفتح باب الغرفة، يدخل ممرضان يرتديان زِيًّا أبيض، يجرَّان بينهما نصف إنسان، يمسك كل منهما بذراع، الرجل الذي يتوسطهما له رأس وجذع وذراعان بشكل مكتمل، أما نصفه الأسفل فغير موجود، فقط بقايا لحم تتدلى كجذر شجرة خرج لتوه من الطين، رأسه يتحرك بشكل طبيعي، يحاول أن يفلت كوعيه من قبضتي الممرضين القويين، ينظر إلى الطبيب والمريض النظيف، يُحذِّر بسبابته ولسانه يستطيع إخراج الكلام:

«أريد أن أنبهكم لشيء. أنا لا زلتُ أحيا. أعيش وأشعر بكم. هذا فقط للعلم».

ويرد الطبيب الذي كان منشغلًا بأجهزته الطبية الكثيرة ومتابعة الشاشات المضيئة:

«نعلم ما تقول يا ...».

يرد أحد الممرضين بسرعة ويكمل لرئيسه الكلمة:

«أربعة وأربعون».

يُكمل الطبيب وهو يسحب نصف الملاءة المعقمة عن مريضه النظيف بحنو واضح:

«وهل قال أحد شيئًا غير ذلك يا أربعة وأربعون؟!».

لا يصدق الرجل أذنيه، فقد رأى أثناء دخوله طبيب التخدير يخرج من الغرفة نفسها، وهو يرى الآن مريضًا نظيفًا يستحوذ على كل العناية الطبية اللازمة، لقد قالوا له كلمات شبيهة منذ أيام قليلة، ورغم ذلك فقد خرج من الغرفة بلا نصف أسفل، للحق، خرج ذات مرَّة بقدم واحدة، ثم المرَّة الأخرى بدون القدم الثانية وبعض مكونات بطنه. فسأل نفسه: «لماذا أدخل غرفة العمليات للمرة الثالثة وأنا لا أشتكي من أي مرض؟».

قال أحد الممرضين لزميله:

«خُذ حذرك. فسوف أتركه لك دقيقة».

أفلت يده من ذراع المريض، ثم ذهب وأحضر قطعة قماش كبيرة ومسَّاحة، ألقي بهما في المكان الذي علقا فيه نصف الرجل، مسح السائل المخاطي الذي كان يسيل، ثم أسنده مع زميله مرة أخرى.

لم يطمئن الرجل لمجيئه في مثل هذا التوقيت، فقد لاحظ أن رجل الأعمال النائم يحرك ذراعًا واحدة فقط، التفت يمينًا ويسارًا فرأى ذراعيه هو مكتملتين، وجَّه كلماته للطبيب:

«لماذا لا تنقلوا إليّ قدميه. بدلا من أن يأخذ هو ذراعيّ؟».

يبتسم الطبيب ويتجه ناحية المريض النظيف، كان قد بدأ يغيب عن العالم المحيط به، فسال خط كفتلة شفَّافة من بين شفتيه، أمسك الطبيب بمنديل ومسح فم المريض المُحتمل بكل الرقة الممكنة، وعاد الرجل النصف؛ المريض البديل، يوجه له الأسئلة من جديد:

«لقد جئت إلى هذه الدنيا سليمًا معافى».

«صحيح».

ينظر الطبيب للممرضين ويُديم النظرة، ودون أي كلام بينهم، يلقيان بنصف الرجل على سرير مهمل في ركن الغرفة، ويسحبون عليه ملاءة عطنة، ينام فلا يستطيع النهوض، بعد قليل يدخل طبيب التخدير مرة أخرى، وكما فعل مع المريض النظيف يفعل في نصف الرجل، يهز المريض البديل ذراعه أولًا معترضًا على أن يُحقن بالمخدر:

«مخدر لا».

يقترب منه طبيب التخدير وفي يده الحقنة جاهزة للغوص في ذراعه:

«أنت مُخَدَّر منذ مولدك. هل ستفيق اليوم علينا؟».

أمسك أحد الممرضين بالذراع المعنيَّة، وغاصت الحقنة في لحمه المرتعش، اقترب طبيب البنج من زميله وقال بصوت جاهد كي لا

يصـل إلى الممرضـين:

«إن فاضت منه الذراع الأخرى لا تتخلص منها، فأنا أحتاجها».

يبتسم:

«ذراع فقط؟ أنت تؤمر يا باشا».

يخـرج طبيـب التخديـر بعـد أن يحـوِّل الرجلـين إلى جثتـين سـاكنتين منتظمتـي الأنفـاس، يتحـرَّك الممرضـان كـما يفعـلان في كل مـرة، كلّ منهـما يعـرف مـا تمليـه عليـه مهنتـه، يقـترب الطبيـب مـن مريضـه المحتمـل، يرفـع عنـه الملاءة، يطمـئن أولا لنبـض القلـب وحركـة التنفس، ثـم يذهـب ليتفقـد نصـف الرجـل؛ المريـض البديـل، لم يكـن مهتـمًا إلا بمـا يريـده منـه فقـط، نظَّـف ذراعـه مـن الوسـخ، عقمهـا ولفهـا بالشرائـط الطبيـة البيضـاء، ومـا تبقـى منـه بعـد ذلـك كان في عِـداد «الخـردة».

بـدأت الغرفـة تعـج بالأصـوات، حَـزّ وقرقعـة، طرقعـات غـير منتظمـة، ثـم همـد كل شيء، سـكنتْ الأصـوات، فقـد أصبحـت الأمـور كلهـا عـلى مـا يُـرام.

رضا وصباح

تـدق الدفـوف في دار الحـاج رضـا، وتـدور أباريـق القرفـة عـلى الضيـوف، يصبـح اللـون الأحمـر للشربـات والذبائـح هـو المعتـاد لعيـون الجـيران لمـدة ثـلاث ليـالٍ بأيامهـا الطويلـة، فـأول أمـس جـاء الحـاج مـن أرض الحجـاز، يزهـو في جلبـاب أبيـض مزهـر، دارت الصـواني بالمشـاريب، عـبَّرت النسـاء عـن الفرحـة بالزغاريـد والرجـال بحلقـة ذِكـر والأطفـال بالهيصـة والأناشـيد، جـاء الخطـاط ليعلـن للجميـع أن الحـج مـبرور، والرسـام ليزيّـن مدخـل البيـت بجمـل وسـفينة وطائـرة.

أول المباركـين كانـت صبـاح، ولصبـاح معـزة خاصـة عنـد الحـاج وذكريـات كثـيرة، مـع صبـاح تحـضر أمـيرة دائمًـا، وأمـيرة الخالـق الناطـق صبـاح، عينهـا بقريَّـة حـوراء، وشـعرها خـروبي غزيـر، وخَطـة عينهـا مرسـومة بدقـة في مكانهـا المكحـول.

تـأتي الحاجـة بالشـاي، تسـتقر الصينيـة بـين صبـاح وأمـيرة، يكـزّ الحـاج عـلى نواجـذه وهـو ينظـر لصبـاح، تزغـر لـه الحاجـة كلـما فعـل هـذه الحركـة.

يفـرك عريـس الحجـاز مسـبحته ويحـكي عـن الأيـام البيضـاء الخاليـة مـن كل دنـس، يسترسـل في وصـف مشـاهد الطـواف ورمـي الجمـرات، يمسـح بكفـه عـلى صـدره النقـي وثيابـه النظيفـة.

قبـل أن يدخـل الحـاج أول أمـس يتوقـف أمـام رسـمة الجمـل، كانـت شـفته غـير دقيقـة، تتـدلى السـفلى أكـثر مـن الـلازم، لم يعلـق، فهـو يعـرف أن صبـاح هـي التـي اشـترت البويـا عـلى حسـابها، وهـي التـي أجَّـرتْ الخطـاط وكلَّمـتْ الرسـام، في كل حجَّـة كانـتْ تفعـل ذلـك، هـذه ليسـت المـرة الأولى التـي يذهـب فيهـا الحـاج رضـا لـلأراضي المقدسـة، ولـن تكـون الأخـيرة، فاكتسـاب اللقـب لابـد لـه مـن الاسـتمرارية في

زيارة الرسول بشكل دائم، لم يهتم الحاج رضا وهو داخل بأن جلبابه الأبيض شابه لون أزرق خفيف، فقد مسح بعض البويا من مدخل الدار، أكمل سيره وسط أهله وجيرانه من المدعوين، يسبقهم الأطفال وحاملو الدفوف.

«تفضلوا الشاي».

قال وهو يستعيد مراسم دخوله المهيبة أول أمس، صباح أمامه لا تزال مبتسمة، وأميرة شفطت رشفة واحدة من إبريقها، تضحك فتظهر غمازتاها تسر الناظرين، عينها بلون الحبر السائل، تشبه أمها لكنها أكثر منها نضارة وأدقّ نظرة، الزغب الخفيف في وجهها يشير إلى طفولة تحزم حقائبها وتغيب عن قريب.

يفتح الحاج شنطة مركونة بجواره، يدس يده الكبيرة في محتوياتها، يقلبها ذات اليمين وذات الشمال، ثم يصمت وكأنه تذكر شيئا، وبسرعة يجذب جرار السوستة فيغلق الشنطة، يرفعها بيديه الاثنتين ويقدمها لصباح وأميرة:

«كلها لكما».

وعين الحاجة لا تغفل عمّا يقال، تتابع بحرص ما لا ينطق به لسان زوجها، فقد تعودت منه مثل هذه التجاوزات، ولأن بطنها لم تلعب فيه العيال، ولم يشتعل فرنها ويطهو ولو طفلا واحدا، فقد راحت تسامحه السنة بعد الأخرى وتلتمس له الأعذار، تتأمل صباح قليلًا، لكنها تتوقف أمام شدّة صدر أميرة، تقيسها بنظرها وتقارنها بكتفي الحاج رضا، وترى المقاس مطابقًا، محجرها الغاطس أيضا، عينها الزرقاء ووجهها العريض، كل شيء في أميرة كأنه نُحِتَ من زوجها، الحاج رضا، حتى المسافة الكبيرة نسبيا بين فتحتي أنفه وشفته؛ والتي يغطيها شاربه، كانتْ كبيرة أيضا لدى أميرة،

لكـن الحاجـة سرعـان مـا تسـتغفر وتعـود لرشـدها الأرضي، وتتمتـم بصـوت لا يتجـاوز حلقهـا:

«الحمد لله على كل شيء».

تفتـح صبـاح الشـنطة، أول مـا لمسـته أصابعهـا كانـت زجاجـات عطور متنوعـة، تحتهـا أكيـاس مُغلقـة، ثـم ملابـس موضـة ملونـة لا تناسـب الاحتشـام والمناسـبة، وبرغـم ذلـك سُرَّت صبـاح لرؤيتهـا وشـهقتْ، وأميرة أطلقـتْ صيحـات البنـات، والحاجـة تتابـع مـن بعيـد، ثـم تقـترب مـن زوجهـا، تسـند كفهـا عـلى كتفـه برفـق:

«الضيوف يا حاج».

ينتبـه للمدعويـن، يرفـع رأسـه والـدم يُـكاد يـضيء أوردتـه ويشـد هامتـه، تلـك الحالـة التـي لا يصـل إليهـا مـع الحاجـة أبـدا، ذلـك الوجـد المختلـط بالرغبـة، تلـك القـدرة الطاغيـة التـي تبثهـا صبـاح بداخلـه، مجـرد وجودهـا يشـعل الشرايـين الميتـة، ويُجـري في دمـه نشـيجًا قديمًـا، شيء غامـض معنـي بتحسـين سـلالة الوجـود، وجـود الرغبـة واللـذة وليـس أي شيء آخـر؛ كتلـك المسـكنات الأخلاقيـة المؤقتـة، بعـد تجـاوز القـشرة الإيمانيـة التـي سرعـان مـا تـذوب وتتـلاشى، يجـد نفسـه وجهًـا لوجـه مـع حائـط إنسـاني صلـب لا تسـتطيع الكلـمات أن تعـبره، ولم تفلـح القوانـين الأرضيـة في فهمـه، أو حتـى الاقـتراب منـه، ذلـك الحائـط الصلـب الشـفاف في آن، والـذي يُعطـي للحيـاة رونقهـا، فتأخـذ الأرض زخرفهـا وتتزيـن، الرغبـة المنفلتـة المضغوطـة، قفـز متواصـل لكـرات الـدم المشـتعلة، أشـياء متناثـرة ولذيـذة لم تسـتطع حزمـة الأخـلاق وحدهـا لجمهـا.

عـين الحـاج رضـا توهجـت كمنـارة، وقلبـه يـكاد يفـط مـن صـدره، خشـوعه المُعلَّـق بأهـداب السـماء تـوارى خلـف الكلـمات الطازجـة

التـي يدبرهـا الآن، وفتنـة الطبيعـة تجسَّـدت وصنعـتْ في روحـه فرحـا دائمًـا.

بعـد أن مسـح الحـاج رضـا الصالـة الكبـيرة بعينيـه الواسـعتين، وبعـد أن تأمـل ضيوفـه وكأنـه يراهـم للمـرة الأولى؛ صفـق بكفيـه البيضاويـن، كانـت الحاجـة تقـف أمامـه:

«الغداء للضيوف».

وتعـرف أن ضيوفـه غـير ضيـوف المناسـبة المـبرورة، تسـمع صبـاح صوتـه فتتمنـع:

«عندي مشوار».

وتقـف أمـيرة في ذيـل أمهـا، وقبـل أن تنـصرف، وتحديـدا بعـد أن أدارتْ صبـاح ظهرهـا لـه؛ أمسـكها الحـاج رضـا مـن معصمهـا بقسـوة لا تناسـب الموقـف، وفي هـذه اللحظـة تحديـدا، تشـعر الحاجـة أن الأكسـجين ينسـحب تدريجيـا مـن حولهـا، لفَّـتْ صبـاح رأسـها، أرعشـت شـفتيها دون كلام، أصابـت هـذه الرعشـة ملامـح الحـاج باضطـراب ورجفـة، فخرجـت منـه الكلـمات دون ترتيـب مسـبق:

«الأكل حالًا يا حاجة».

كان صوتـه العـالي لا يناسـب المسـافة القريبـة التـي تبعـد زوجتـه عنـه، قالـت وهـي تتجنـب الغـوص في عينيـه:

«نسخنه؟».

يردف وكفه لا تزال قابضة على المعصم:

«بسرعة».

تتردد أميرة بين الجلوس والانصراف، ويُسمع صوت صباح ضعيفًا:

«فرصة ثانية. تأخرنا».

أفلتت يدها من قبضة الحاج، خطت إلى الباب وهو خلفها، وزوجته خلفه، كقطار كل عربة فيه تعرف مكانها ووظيفتها جيدا، وقفتْ صباح بالخارج وأمامها أميرة، ورفع الحاج رضا يديه الاثنتين فوق الباب، فأصبح كخفاش أبيض يستعد للطيران، اضطربت عين صباح عندما تلاقت مع عين الحاجة، لكنها لم تستمر فيها طويلا، تجاوزتها إلى درجات السلم، تقدمت الحاجة زوجها وأصبحت أمامه، تُتابعهما تنزلان السلالم، وتسمع من خلفها صوت:

«خطوة عزيزة. شرفتونا والله».

الرجل وطريقة موته العجيبة

حلقتُ ذقني بعد أن تركتها شهرًا كاملًا، كانت طويلة مشعثة، لم يلتفت لهذا التغيير أحد، لم تُعلق زوجتي على خلو وجهي من الشَعر بعد الحلاقة، انتشرت رائحة الكولونيا وصنعت من حولنا دوائر غير مرئيَّة، صففتُ شعري ووقفتُ أمامها مدة طويلة حتى تلحظ ذلك التغيير من تلقاء نفسها، بالفعل، استيقظتْ وتركتْ السرير، نظرتْ إليّ من فوق لتحت، ثم حدثتني عن الأشياء نفسها التي كنا نتحدث عنها بالأمس، بلاطة مخلوعة في الصالة تحتاج لترميم، وحوض المطبخ يخر المياه.

ضقتُ بكلامها، فكأنني لم أقم بحلاقة ذقني، حتى أنني شككتُ في أنني قمت بفعل شيء جديد. عُدتُ إلى مرآة الحمام مرة أخرى، تأملتُ وجهي، كان محلوقًا ونظيفًا، تأكدتُ من ذلك مرتين وأنا أمرر أصابعي على ذقني الناعمة، وتأكدتُ أن المشكلة تكمن في زوجتي، فهي لم ترَ أي تغير طرأ عليّ. لم أجد ما يمنع أن ألفت نظرها إلى تلك المستجدات، فقلتُ لها بصوت رقيق يميل للرومانسية:

«ألستُ أفضل هكذا؟».

وزنتني بنظرة طويلة ولم ترد، ثم بعد شهيق عميق وزفير غاضب قالت:

«ستظل كما أنت ولن تتغير أبدًا».

أشيرُ بسذاجة إلى وجهي، أمسح بأصابعي مرة أخرى على ذقني للتأكد من نعومتها:

«لقد حلقتُ ذقني وتعطَّرت. ما رأيك؟».

لم تندهش، ظلَّتْ ملامحها ثابتة على تعبيرات باردة كما هي،

ابتعـدتْ عنـي وخلعـتْ كل ملابسـها، لم تبـق إلا بقميـص شـفاف لا يتناسـب مـع بـرودة الجـو:

«كل محاولاتك للتغيير فاشلة».

قالـت ثـم رفعـتْ قميصهـا حتـى ركبتيهـا، صعـدتْ السريـر وتأهَّبـتْ للنـوم.

لمسـتُ كتفهـا بأطـراف أصابعـي، فتحـتْ عينًـا واحـدة فقـط لـتراني، فانتهـزتُ هـذه الفرصـة وقلـتُ لهـا:

«أشعر بشيء غريب يحدث لي».

فتحتْ عينها الأخرى:

«أخيرًا فهمت؟».

كنتُ محتارًا ومرتبكًا وأنا أنصت لكلماتها:

«فهمتُ ماذا؟».

سألتها..

«أنك ميت».

ردت عـليّ ثـم قامـت مـن نومهـا وتركـت السريـر، اتجهـتْ نحـوي وتأملتنـي جيـدًا عـن قـرب، كاد أنفهـا يلمـس طـرف ذقنـي:

«أنـت ميـت منـذ مـدة طويلـة. لكننـي تحملتـك فقـط لأننـي لا أحـب قتـل أحـد».

وقفـتُ أمـام المـرآة أتأمـل ملامحـي وحـالي، حملقـتُ جيـدًا فلـم أر وجهـي في المـرآة، سـواء الوجـه المحلـوق أو قبـل المحلـوق، كانـت صفحة المـرآة صافيـة، لا تتحـرَّك فوقهـا أيَّـة ملامـح. لوّحـتُ بيـدي لنفـسي كـما لـو كنـتُ أودع مسـافرًا، لكـن يـدي أيضًـا لم يظهـر لهـا أثـر في المـرآة.

فتحتُ دولاب ملابسي، كأنني أنتظر هذه اللحظة منذ زمن، أخرجتُ الكفن الذي أعددته منذ سنوات طويلة، وتحديدًا عندما داهمتني أزمة قلبية أجريت بعدها عملية جراحية خطيرة، بعد خروجي من غرفة العمليات بأيام قليلة اشتريتُ كفني واحتفظت به. يبدو أن دوره قد جاء، أحاول الآن أن أتذكر متى أجريتُ تلك العملية، فلم أستطع حساب الزمن ولا تمييز الوقت.

أخرجتُ قميصي الأبيض الفضفاض، ارتديته للتأكد من مقاسه، حاولتُ ضبط ملابسي الجديدة فلم أستطع ذلك بمفردي، لم أود الخروج قبل أن أُبلِغ زوجتي، أيقظتها، فركت عينها وحكَّت رأسها، دُرتُ في ثوبي الجديد لأفرجها عليه، تأملَته جيدا ثم قالت:

«هذا الرداء لا يُلبس هكذا».

لم أفهم ما تعنيه بكلمة «هكذا» استفسرتُ في براءة:

«ماذا تقصدين؟».

قالت وقد أوشك صبرها على النفاد:

«أنت ترتدي كفنك فوق الملابس».

شكرتها على تلك الملاحظة، دائما تلفت نظري لأشياء أجهل التوصّل إليها بمفردي، فهي التي نبهتني ذات صباح إلى أن أذني يخرج منها شعر، وفتحتيْ أنفي أيضًا تلفظ شعيرات كشوشة صغيرة، كانت مثل هذه الملاحظات العابرة دليلًا على مرور زمن، لكنها لم تكن تُعلق على الزمن، بل على آثاره.

وافقتْ على شُكري لها بهزَّة بطيئة من رأسها، ثم عادت إلى سريرها مرة أخرى.

خلعتُ الرداء الأبيض، ثم خلعتُ ملابسي كلها، ارتديتُ بعد ذلك

كفني على اللحم، كان الجو باردًا، لم أستطع ربط الأشرطة البيضاء حول خصري دون مساعدة، أيقظتُ زوجتي، هزتها يدي برفق، وربما برقَّة، فأنا لا أود أبدًا أن أسبب إزعاجًا لمن حولي، استيقظتْ زوجتي وعلى وجهها علامات الضيق، رغم أنني لا أقصد مضايقتها أبدًا، كانت في كل أحاديثها الموجّهة إليّ تحدثني عن فشلي المتكرر، وصوتها دائمًا يطن في أذني «أنت أخيب خلق الله» أقنع نفسي بأنها تمزح معي، ولم أصدق أنني خائب إلى هذه الدرجة.

ما أن استيقظت حتى كوَّمتْ ملابسي التي كنتُ أرتديها منذ دقائق، عبأتها في كيس بلاستيك كبير ووضعته مع زبالة اليوم الفائت، عادت إلى وهي متأهبة ونشيطة، أدخلتْ ذراعي في القماشة وربطت الحزام، ثم صرختْ في فجأة:

«كيف سأربطك وأنت واقف تفرك هكذا؟».

نظرتُ إلى السرير، لمحتُ البطانية فطبقتها، رتبتُ الملاءة وساويت الوسائد ببعضها، في السنوات الأخيرة اعتدت أن أفعل ذلك كل صباح، لكنها صرختْ في مرة أخرى:

«كيف تفعل ذلك؟ لابد أن تعرف أنك الآن ميت. ولا يمكن لميت أن يرتب سريره».

في تلك اللحظة الخاطفة؛ قطعتُ طريقًا طويلًا وشاقًا حتى أعرف أنني فعلاً ميت.

نِمتُ على السرير وأنا أحاول ضبط تنفسي كي لا يتحرك بطني، سأحاول قدر الإمكان أن أوحي لزوجتي بخروج الروح من بدني، أغمضتُ عيني لأبدو شبيهًا بالأموات، في الحقيقة؛ لم أكن أعرف عن الأموات إلا بعض معلومات نظرية، لم أشعر أبدًا بما يمكن أن يشعر

بـه ميـت، فـكل مـا يربطنـي الآن بالأمـوات هـو قناعتـي الشـخصية بمـوتي.

شـدَّتْ زوجتـي الربـاط عـلى يـدي، لفتّنـي جيـدًا، بعـد أن ربطـتْ قدمـيْ نظـرتْ طويـلًا إلى أظافـري، ثـم تأمَّلـتْ الربـاط قبـل أن تمـد يدهـا وتفـك عقدتـه، عندمـا سـمعتُ صوتهـا فتحـتُ عينـي، لا أعـرف لمـاذا فتحـت عينـي رغـم علمـي بـأن أذني هـي التـي تسـمع؟

«لا يمكننـي أن أربـط قدميـك، إذ كيـف سـتمشي عندمـا تخـرج مـن هُنـا وتبحـث لنفسـك عـن مقـبرة؟».

هززتُ رأسي وعدت لإغماض عيني مرة أخرى:

«افعلي ما يروق لكِ».

كنـتُ أصـوب عينـي إلى مـرآة التسريحـة الطويلـة بـين حـين وآخـر، ثـم ألتفـتُ لزوجتـي أحـاولُ فتـح مجـال للـكلام معهـا:

«أنا لا أرى نفسي في المرآة».

حملقتْ أولًا في المرآة ثم ردتْ عليّ:

«هل سمعت من قبل عن ميت يرى نفسه في مرآة؟».

عُـدتُ صاغـرًا لسـيرتي التـي ارتضتهـا لي زوجتـي، فقـد أقـرَّت بأننـي ميـت، ولم يبـقَ فقـط إلا التوقيـع عـلى ذلـك الإقـرار وإقامـة المراسـم.

عندمـا اقتربـتُ مـن بـاب الشـقة سـمعتُ بعـض كلـمات طائـرة في الهـواء، تقريبـا كنـتُ أنـا المقصـود بهـا:

«بدايـة مـن اليـوم يجـب أن تعتمـد عـلى نفسـك ولا تنتظـر أن يسـاعدك أحـد. فأنـت منـذ الآن ميـت. لـن تجـد هُنـاك مـن يخدمـك مثـلي. هـل فهمـت؟».

تضاربت أحاسيسي وأنا أسمع هذا الكلام، فمن المفترض أن يتحدث الميت مع أشخاص من عالم آخر، لا أن أتكلم، وأنا الميت، مع أشخاص من العالم الذي متّ فيه وأستعد لتركه، كنتُ بالفعل مرتبكًا، لكن ذلك ليس جديدًا، فأنا طوال حياتي مرتبك، لا يُضير إن أصبحت طوال موتي مرتبكًا أيضًا.

وقفتُ قليلًا أمام الباب، لم تنتظر زوجتي حتى أنزل الدَرَج، كنتُ بالكاد أتأهَّب للنزول، لمحتها تُطفئ المصباح الخارجي الوحيد بسرعة وتغلق الباب، وكأنها ارتاحت مِني. أحاول تحريك يدي وأفشل، كفي على الكف الأخرى في وضع الصلاة، مكبلتين بشريط أبيض، لمَّا خفتُ صعدتُ باتجاه باب شقتي مرة أخرى، كنتُ قد نزلت درجتين فقط، لا أعرف لماذا شعرتُ بأن بيتي أصبح قديمًا وأنا غريب عنه؟ لم أستطع طرق الباب أو رن الجرس، نطحته برأسي وحككته بقدمي، فتحتْ زوجتي بسرعة كأنها كانت تنتظر خلف الباب، وعاد لسانها للعمل مجددًا:

«كنتُ أعرف أنك ستعود الآن».

حاولت أن أداري فشلي عنها:

«أريدكِ فقط أن تفكي قيد يدي».

ودون كلام اقتربتْ مِنَّي، فكت الشريط من معصمي وربطته حول خصري، فأصبحتُ كمومياء طازجة. عندما تحررتْ يداي بعد دقائق فقط من ربطهما لم أشعر بحركتهما، كأنني مؤهل لأن أكون بلا ذراعين، أحلتُ ذلك الإحساس إلى استعدادي الفطري لأن أصبح ميتًا، لا أشعر بالذراعين، ثم القدمين، وبعد ذلك يتوقف القلب وتخمل الأوعية الدموية ويتجلط الدم، فأحدق في لا شيء بعيني سمكة ميتة.. ثم، ثم لا أعرف ماذا سيحدث بعد ذلك.

بعـد أن أصبحـتُ بقدمـين وذراعـين تتحـرك بحريـة نزلـتُ الـدَرَج بسرعـة لا تتناسـب مـع ميـت، أو حتـى عجـوز، فأنـا في السـابعة والأربعـين، في شرخ الشـباب الثـاني، لا أعـرف هـل مـن اللائـق أن أمـوت وأنـا قـادر عـلى المـوت؛ أم الأفضـل أن أمـوت عندمـا أفقـد الصلـة بـكل مَـنْ حـولي؟ ربمـا كان مـن الأفضـل أن أمـوت وأنـا بصحـة جيـدة!

أصبحـتُ أسـفل البنايـة في وقـت قصـير، كانـت هنـاك مشـكلة لا أعـرف كيـف سـأعالجها، إذ كيـف سـأمشي كالسـهم الأبيـض بـين الأحيـاء الملونـين، بـدأ النهـار يُظهـر أحجـام النـاس في الشـارع، ثـم طلعت شـمس خفيفـة تُبـيِّن ملامحهـم، عرفـتُ بعـض الأشـخاص السـائرين بالقـرب مِنّـي، كنـتُ أختبـئ منهـم خلـف بوابـة البنايـة، لا أود أن يـروني وأنـا ميـت، كـما لم أكـن أحـب أن يـروني وأنـا حـي.

توقَّفـتْ آلـة الأسـئلة في رأسي، بـدأ وثـاق اللغـة ينفـرط وتصبـح الكلـمات بـاردة، لا تـؤدي إلى انفعـال أو تبـادل حديـث مـع النفـس، كانـتْ نظـرتي للشـارع مشوَّشـة، وتحديـد أحجـام النـاس غـير دقيـق. سَـمِعتُ صوتًـا بالخـارج، لم أخـرج، اختبـأتُ وراء لافتـة خشـبية قديمـة ومُهملـة، لم أحـبُ أن يـراني أحـد وأنـا بهـذه الملابـس، انتظـرت حتـى عـبرني صاحـب الصـوت ثـم خرجـتُ، لكننـي قابلـتُ شـخصًا آخـر، لم يمهلنـي الفرصـة لأختبـئ عـن متابعتـه، اقـترب مِنِّـي، صافحنـي بحـرارة وهـز يـدي مِـرارًا، لم يُعلِّـق عـلى ملابـسي البيضـاء أو هيئتـي الجديـدة، لم يلتفـت للأربطـة الملفوفـة بطـول جذعـي، شـددتُ يـده وجذبتـه إليّ:

«ألا يوجد في شيء غريب؟».

يرد الرجل بسرعة:

«يوجد طبعًا. فأنت تلبس حذاءً أسود لا يليق بملابسك البيضاء».

أنظرُ لقدمي بالفعل فأجد حذائي لا يليق بي، يُخرِج الرجل من كيس كان يحمله حذاءً أبيض خفيفًا كالمشمَّع، ينحني بالقرب مِني، يخلع عني حذائي ويضع مكانه حذاءه المشمَّع، أجذبه مرة أخرى وأقول له:

«العفو. العفو».

ويرد الرجل بوجه بشوش:

«إكرام الميت تجهيزه جيدًا قبل دفنه. لابد أن تموت بالطريقة الصحيحة».

الرجل يعرف إذن أنني ميت، لماذا يكتشف كل من يقابلني بهذه السهولة حكاية موتي؟ كل من يراني اليوم يعرف ذلك، إلا أنا، لا أصدِّق أنني متّ، حتى الآن أشكُ في صدق هذه الرواية، بادرت الرجل الذي لا أتذكر اسمه بسؤال:

«وهل لميت أن يتكلم يا عم؟».

يضحك الرجل بصوتٍ عالٍ، يضرب كفًا بكف، ثم يشير بطول ذراعه إلى كل من يسيرون حولنا:

«أنت مستجد على الموت. وضعك الجديد يحجب عنك رؤية الحقيقة، وهل يتحدث إلينا إلا الميتون؟ نستمع لحكاياتهم في ماضينا ولآرائهم في حاضرنا ولمشوراتهم في مستقبلنا، أنت فقط ذاكرتك ضعيفة بسبب حداثة موتك».

يستوقفني كلام الرجل، أتأمل السائرين من حولي، ثم أسأله:

«وهل هؤلاء ميتون أيضا؟».

يرد الرجل بعد أن ضمن حذائي بين يديه:

«هُم ميتون. لكنهم في انتظار خروج الروح».

بدأتُ أشعر بالارتياح قليلًا، فقد زال عني إحساسي بالوحدة.

سرتُ في الشارع بثقة أكبر بعد أن تركتُ رهبتي عند بوابة البناية، كلما رأيتُ أحدًا يسير إلى جواري أشرت له، وكان يبادلني التحية دون تعليق، وذلك يعني أن كل مَنْ يسيرون من حولي يوافقون على وضعي الحالي، لاحظتُ أن جميع السائرين أقرب لنيام، بسبب نظراتهم نصف الواعية ومشيتهم فاقدة الاتجاه.

الجو الصباحي كان يقطر دخانًا أبيض.

تجاوزتُ شارعي، كنتُ أعرف أغلب السائرين، انتقلتُ إلى شارع أكبر غير الذي عشتُ فيه ومتُّ، أفضت بي الشوارع المتفرعة إلى ساحة كبيرة لم أرها من قبل. أرضها صفراء شاحبة، والناس الذين يتجولون فيها يراودهم النوم، حتى ظننتُ أنهم فاقدو الوعي. قطع أحدهم طريقي وهو منتبه أكثر مما يجب، نظر إلى معصمي بتركيز شديد وقال:

«فيمَ ستفيدك هذه الساعة؟».

نظرتُ إلى ساعتي فوجدتها لا تزال في يدي، كما هي على نفس هيئتها ولون «الأستيك» الجلدي الأسود، لكن عقاربها متوقفة عن الدوران، كيف نسيتْ زوجتي أن تخلعها عن معصمي؟ أعطيتها للرجل بنفس راضية، حَجَلَ وكاد يطير من الفرحة، ثم غاب في شبورة الشروق الباردة.

تركتُ منطقتي والمناطق المجاورة، رأيتُ أمامي صحراء ممتدة، مترامية الأطراف دائرية الرقعة، في منتصفها مدقات وحصون رملية مخصصة لعساكر الجيش، ولافتة تقول كلمات تحذيرية «ممنوع الاقتراب أو التصوير» كنتُ قريبًا منها جدًا، بدليل تمكني من

قراءتها، لكن لم تكن معي كاميرا.

تجاوزتُ العساكر وغصتُ في الصحراء، سِرتُ في قلب الرمال حتى شعرت بسخونة الشمس، لوهلة، انتبهتُ إلى وحدتي الجديدة، في لحظات معينة كنتُ أشعر أنني أعرف طريقي جيدًا، وأحيانًا أخرى أراني تائهًا وليس لدي وعي بأي شيء، وتذكرتُ كلمات زوجتي: «أنت ميت منذ مدة طويلة. لكنني تحملتك فقط لأنني لا أحب قتل أحد» لم أشعر بصدق كلماتها، ولم أشم رائحة لأي عفن، وأستطيع الآن أن أحرِّك ذراعي أو أنقل قدمي وأغير موطئها، على حد علمي، لا يستطيع شخص ميت أن يفعل مثل هذه الحركات، بل لا يمكنه مجرد التفكير فيها.

في قلب الصحراء طلع لي رجل كأنه شق الرمال، تمعَّن في وجهي طويلا ثم أشار إلى نظارتي:

«هل لي أن آخذها؟».

ثم أضاف قبل أن أدبِّر له الرد المناسب:

«لم يعد لها لزوم في وجهك الميت».

كلما نسيت وضعي الجديد خرج لي مَنْ يُذكِّرني به، عندما خلع الرجل النظارة عن وجهي غامتْ الرؤية وضاق الأفق، حتى عندما حاولتُ تتبع الرجل فلم أره، بدأت أمطار خفيفة ترش الرمال الناعمة. بعد قليل رأيتُ الرجل الذي أخذ حذائي ومعه الرجل الذي أخذ ساعتي، ومن خلفهما يمشي الرجل الذي سحب نظارتي من وجهي، صنعوا من حولي طوقًا، أخذوا يغنون من أجلي أغاني لا أعرفها، موسيقاهم تنبع من حناجرهم، فمنهم من يصفر ومنهم من يصرخ ومنهم من يشفط الهواء ليواكب الأنغام الأخرى، قال

الرجـل الـذي يلبـس حـذائي:

«يـا مُغفـل. هـم قالـوا لـك أنـك ميـت كي يهدمـوا بيتـك ويسرقـوا كنـزك».

وأرد عليه بنصف وعي:

«إن بيتـي في الصحـراء يـا عـم. والصحـراء لا يوجـد بهـا إلا الشـمس والرمـال!».

قال الرجل وهو يبتسم ابتسامة خبيثة:

«يا بني آدم. وهل توجد الكنوز إلا في الصحراء؟!».

اقـترب منـي الرجـل الـذي يزيـن معصمـه بسـاعتي، عـادت عقاربهـا تـدور كأي سـاعة عاديـة، قـال:

«يـا مُغفـل. هـل يمكـن أن يمـوت شـخص وهـو واقـف عـلى قدميـه؟ أنـت لم تصـل لمرحلـة الاحتضـار بعـد».

ثـم انـصرف وهـو يرقـص تحـت المطـر، اقـترب الرجـل الـذي أخـذ نظـارتي ووجَّـه كلامـه إليّ:

«أنـت عجيـب. عجيـب واللـه، هـل صَدَّقـت بهـذه السـهولة أننـا سـنبحث لـك عـن قـبر؟. أخذنـا كل مـا لديـك ولم تأخـذ أنـت شـيئًا. ورغـم ذلـك تسـتأمنًا عـلى مـكان دفنـك. أنـت إنسـان لُقطـة واللـه».

ثم لمحت الرجل الذي لبس حذائي يقترب مِنّي:

«كلماتك لم تعد تناسب الأحياء، وأفكارك أيضا».

قال ثم أخذ يحجل بحذائي ويبتعد عني.

كان يتملكنـي إحسـاس قـوي بأننـي أسـير في الطريـق الصحيـح إلى المقـبرة، مقـبرتي التـي اشـتريتها بالتقسـيط، لكنـي لا أعـرف الطريـق

إليها، لذلك كان لابد من دليل، والآن صار معي ثلاثة أدلاء يحاولون جذبي لأسير معهم، أنا أتذكر قبري جيدا، كان بجواره ثلاث نخلات قصار، وشاهِد عريض من خشب مدهون بالبويا البيضاء، وهذه الصحراء التي أسيرُ فيها هي البوابة التي ستؤدي إلى مقبرتي، لا يهمني ما يقوله هؤلاء الأغراب، فقد سرقوا مقتنياتي والآن يريدون أن يسرقوا جسدي، لن أعطيهم الفرصة لذلك أبدا.

ابتعد الرجال الثلاثة عني، أو بالأدق، أخذوا جانبًا وتركوني أسير وسط الصحراء دون مضايقتي، مشيتُ ولم أنظر خلفي، كان همي كُله منحصرًا في العثور على مقبرتي العزيزة، والتي أقنعني كل مَنْ حولي بأنه حان الوقت كي أُدفن فيها. كانتْ الأرض تصعد بي إلى أعلى، والقماشة الطويلة التي أرتديها تجرجر من تحتي، تتعثر فيها قدمي، تجذبني الرمال أسفل التل، لكنني أواصل الصعود دون كلل، كأن مروج الجنة بانتظاري، وبعد معافرة من أجل البقاء ميتا؛ مرَّ نهار كامل ونصف غروب، اختفى الرجال الثلاثة في غلالة بدأت تطبق على الصحراء وتغلفها، ووجدتُ نفسي وحيدًا بين كثبان صفراء وسماء محملة برعد وشمس تستحيي أن تشرق.

جدي والدرَّاجة

بعد نجاحي في الصف السادس صدق جدي وعده، اصطحبني وذهبنا مباشرة لمحل الدراجات، سِرنا لأكثر من نصف ساعة، لم يكتفِ بشراء الدرَّاجة كي يثبت لي بأن مجموع درجاتي كان أعلى من طموحه، لكنه إمعانًا في الفرحة العارمة حمل الدراجة على كتفه، مشى والعرق يغمر ما ظهر منه وما بطن.

أثناء عودتنا النشيطة باتجاه البيت قابلنا شخصًا لا أعرفه، ولكن يبدو من نظرته لجدي أنه يعرفه، سأله:

«بِكَم هذه الدراجة؟».

نقل جدي حمولته على كتفه الأخرى، أخذ نفسًا عميقًا ثم قال:

«قُل أنت».

يبتعد الرجل عنَّا، نسمع صوته وقد أوشك تدريجيًا على الاختفاء:

«بخمسين؟».

يلف جدي الجادون ليعدل وجهته فوق كتفه:

«صحيح. هي بِهُم».

ونترك الرجل يغيب في سلام، يبتلعه ضجيج الشارع وزحام الناس، أتذكر بأن جدي دفع فيها خمسة وستين جنيها، وأسأله:

«لماذا لم تقل له السعر الحقيقي؟».

بدأت قطرات عرقه تروي الأرض:

«هو لن يبيع ولن يشتري. وجع دماغ وخلاص».

بعد أن سِرنا مسافة قليلة قابلنا شخصًا آخر، كان يبدو من منظره أنه غريب عن الشارع، وجَّه كلامه لجدي أيضا:

«بكم اشتريتها يا عم؟».

ويرد جدي كما رد من قبل:

«ثَمِّنها».

«بسبعين؟»

تنفرج أسارير الملامح المغمورة بالعرق، ويطرد لسانه الطعم المالح بعيدا عن شفتيه:

«صحيح. هي بهُم».

تكرر هذا السؤال كثيرا طوال مشوارنا القصير، ولا مرة قال أحد المارة السعر الصحيح، وأيضا ولا مرَّة اعترض جدي على السعر المُقترح.

بعد قليل أنزل درَّاجتي من فوق كتفه، طلب مِنِّي أن أركبها وآخذها لفَّة، ثم أخذ يزن الجنزير والفرامل بعين خبير، يرنّ الجرس بشكل متواصل ويخبط الكرسي مرتين كإذن منه بالركوب. أثناء ركوبي الدراجة كان جدي يتابع السيارات من حولي، يقف أمامها ويشير بيديه مثل عسكري مرور، ويسبّ بعض السائقين العُمي إذا لزم الأمر، اصفرَّ وجهه قليلا واختلط عرقه بالتراب. كنتُ أقود لعبتي ذات العجلتين ولا أرى إلا اختراقي للأشياء من حولي، رائحة البلاستيك الجديد تملأ أنفي والفرحة تملأ روحي، لم أنزل عنها وأترك الجادون إلا عندما وقف أمامي عيل في مثل سِني، وسألني:

«للبيع؟».

اقترب جدي بسرعة، كان قد سمع السؤال:

«فعلا للبيع. معك مئة وخمسون جنيها؟».

انصرف الولد دون أن يرد، لكن جدي رد:

«مع الناس كلها فلوس الآن؟ حاجة تقرف».

يحمل الدراجة على كتفه مرة أخرى كما الوضع الأول، يلتفت إليّ موجهًا بعض الكلمات:

«عارف. لو أردنا بيعها بالفعل. فلن يدفع أحدهم نصف ثمنها».

ثم سار بشكل أكثر جديَّة، وأنا في كعبه، فقد اقترب البيت جدًا من أقدامنا.

المغفلون والحلاق العجوز

أنا شخصية في قصة.

طـال شـعري فذهبـتُ إلى حلاَّقـي العجـوز، رأيتـه يرفـع مقصـه في الهـواء ويغنـي «يـا وابـور قُـل لي رايـح عـلى فـين».

كان محلُـه في الـدور الثالـث والأخـير مـن البنايـة. يجلـس مـن قبـلي زبونـان، أثنـاء الانتظـار اهتـزَّتْ الأرض مـن تحـت قدمـي، رقصـتُ مـع الهـزَّة، اعتقـدتُ أنـه زلـزال خفيـف، أقـل مـن خمـس درجـات بمقيـاس ريخـتر، ثـم ازدادت الهـزَّة فصـارت ثمـاني درجـات، ثـم تطـور الأمـر ورقصـتْ البنايـة كلهـا، كانـت الشـخصيات مـن حـولي تتحـرك بشـكل مطاطـي، لا تلتصـق بـالأرض كـما ألتصـق أنـا، بـل يهتـزون ويتلـوون، ثـم يعـودون كـما كانـوا بمنتهـى السـهولة.

لا يـزال الحـلاَّق يغنـي «عـمال تجـري قبـلي وبحـري تنـزل وادي تطلـع كوبـري»، المقـص في يـده ثابـت لا يرتعـش مثـل الأرض والجـدران، لم ألحـظ أي توتـر أو اهتـمام مـن الزبونـين المنتظريـن، بـل كانـا يتحدثـان حـول أمـور الحيـاة اليوميـة وهـما يتمايـلان، تلعـب مـن حولهـما الأشـياء، وسـألتُ أحدهـما:

«هل سنجري؟».

ويـرد الرجـل الأربعينـي الـذي كان يمسـك بالجريـدة ويحـل الكلـمات المتقاطعة:

«ولماذا نجري؟ لو جاء دورنا فلن يكون في استطاعتنا التأخر».

ثم يندمج أكثر في جريدته، ويسأل الشاب الجالس إلى جواره:

«رئيس وزراء مالي سنة 86 وأول حرف من اسمه ميم؟».

كان الشـاب منشـغلًا بالبحـث عـن أرقـام في الموبايـل، لا يعبـأ هـو

الآخر باهتزاز الأرض من تحت قدميه، استجمعتُ شجاعتي وسألته:

«لماذا لا نجري؟ يمكننا النزول قبل الانهيار».

فَرّدَّ وهو لا يزال قابضًا على الموبايل:

«نجري من ماذا. ونجري لماذا؟ أعتقد أننا لن نجني شيئًا جديدًا».

ثم ضحك بصوت عالٍ دون سبب واضح، على الأقل بالنسبة لي. أثناء اهتزاز الأرض تحت أقدامنا؛ كان الحلاق العجوز يزن بعينيه رأس الرجل الجالس أمامه على الكرسي، يساوي شعرة زائدة، بعد قليل أخذ يتأمَّل مقاس الحاجبين، يتمايل ويتقصَّع بشكل لا يناسب سِنّهُ، يخرج صوته بطيئًا «يا وابور.. يا وابور» مقصه يطقطق بشكل منتظم وهو بعيد عن رأس الزبون.

عاد اهتزاز الأرض من تحت قدمي يشغلني من جديد، والرجل الأربعيني الممسك بالجريدة لا يزال يبحث عن رئيس وزراء مالي سنة 86، والرقم الذي يبحث عنه الشاب الممسك بالموبايل لم يجده حتى الآن، والحلاق العجوز يطقطق بمقصه ويحلق الهواء.

تركتهم جميعا وجريت، لم أنتظر المصعد، قفزت متجاوزا السلالم زوجيَّة وثلاثيَّة حتى أصبحتُ في الشارع. رغم الخوف، لم يمنعني الفضول من النظر خلفي، كانتْ البناية تهتز بقوة، ثوانٍ قليلة مرَّت ثم بدأ الدخان يتصاعد، وسمعتُ أصواتًا عالية تختلط بصرخات مكتومة ورجَّة تهز الأرض تحت قدمي، خفتُ من النظر خلفي مرة أخرى، ظلّ الدخان يعلو حتى عانق السماء، اجتاحتني أحاسيس متضاربة.

لكن بعد أن سكن الصراخ وهدأ الغبار سمعتُ صوتًا:

«أنت شخصية مزيفة. هل هناك شخصية حقيقية تهرب بهذا الشكل المخزي؟».

كان صوت الحلاَّق العجوز. والكلمات تخللتها طقطقة مقصه الرتيبة، ثم صوت ضعيف «ما تقول يا وابور رايح على فين».

استفزني الصوت، فأنا لم أتخيَّل نفسي أبدًا شخصية مزيفة، استدرت للخلف فوجدتُ البناية لا تزال منتصبة، عاد الزمن قليلًا للوراء، فعاد الغبار إلى مكوناته الأولى تحت دهان الجدران وبلاطات الأرضيَّة، تكوّنتْ البناية من أنقاضها كما كانتْ قبل نصف ساعة، فعُدت إلى حيث جئت دون إرادة كاملة مِنّي، صعدتُ السلم، ورأيتُ مرة أخرى الرجل الأربعيني الذي يمسك بالجريدة ويبحث عن اسم رئيس وزراء مالي سنة 86، ولكني عرفت عنه هذه المرَّة بعض معلومات إضافية، لم يكن الرجل تافهًا يضيّع وقته كما كنتُ أظن في المرة السابقة، عندما مُنِحتُ حياة ثانية اكتشفتُ تفاصيل أخرى لم أكن أعرفها، فقد أصيبتْ زوجته بمرض لا شفاء منه، ثم ماتت وتركت له أولادًا وبناتًا، وأصبح يعمل خمس عشرة ساعة في اليوم، ويُسرّي عن نفسه بحل الكلمات المتقاطعة في الحمّام وعند الحلاق. والشاب الذي يجلس إلى جواره لم يكن تافهًا ويلعب في الموبايل، لكنه كان يساعد الرجل الأربعيني، على محرك البحث «جوجل» نقر حرف الميم، حاول أن يقرأ الاسم الصعب لرئيس وزراء مالي سنة 86.

بدأتْ البناية في الاهتزاز مرَّة أخرى، تمامًا كما حدث من قبل، وفكرتُ في الهرب من جديد، تمنيتُ لو خرجتُ من المشهد، لكني لا أعرف لماذا لم أهرب، فمصير الشخصيات الحقيقية أمثالي لابد أن يكون واضحًا، التزمتُ بالدور الذي كان عليّ أن ألعبه، شخصيتي

الحقيقية المفترض وجودها في القصة، فأنا لابد أن أموت الآن، مر من حياتي أربعون عاما، فعلتُ فيها كل ما يمكن أن يفعله إنسان، وكل ما أستطيع التخطيط له في السنوات القادمة؛ لن يخرج عن كونه تكرارًا رتيبًا لأشياء فعلتها من قبل.

تأكدتُ الآن من أنني شخصية حقيقية، لكنها شخصية عابرة في قصة تكررتْ ملايين المرات، عندما تملّكني ذلك الإحساس استسلمتُ، جلستُ بجوار الرجل الأربعيني أبحث معه عن رئيس وزراء مالي سنة 86، والشاب لا يزال يحاول قراءة الاسم الصعب فوق شاشة الموبايل، والمقص الذي يمسك به العجوز يطقطق دون داعٍ، لم أعد أهتم بالأرض التي تهتز تحت قدمي، أخذتُ أدندن، وأصبحنا صوتين «رايح على فين. ما تقول يا وابور».

لكن البناية لم تقع، فقط رقصتْ وبعدها استقر الحال، ثم سَمِعتُ صوتًا يجاهد كي يصل إلينا، نطق بالاسم الذي كنا جميعا نبحث عنه، رئيس وزراء مالي سنة 86 وأول حرف من اسمه ميم. «مامادو دمبلي».

الشجرة وما تحتها

«عشتُ معكِ ستين عامًا، ولكني لم أعش فيكِ إلا دقائق، وربما لم أعش أبداً».

قال الرجل العجوز وهو يبكي، ولبكاء العجائز شكل البيت الآيل للسقوط، أشفَق عليه بعض المارة، بالكلمات تارة، وبمحاولة النهوض به تارة أخرى، لكنه لم يبرح مكانه، ينظر إلى بصمة قدميه ويربت على التراب، يحدق بوسع ما أمكنه من رؤية، لا يمسح دموعه، تنزل فوق جلد كفه وتدبغه، يناجي ورق الشجر والعصف الهائش تحت قدميه:

«لماذا لم أنظر طيلة المدة في عينيكِ؟».

من حوله جاءته بعض العطايا، زجاجات مياه وساندويتشات، علب مناديل وعصائر، لم يرفضها ولم يقبلها، ركنها بجوار قدميه كما هي، كان المارة وكأنهم معتادون على ذلك المشهد في وقت معين من كل عام، يبدو ذلك من تجنّب إلقاء الأسئلة عليه، وكذلك بسبب ما يقدمونه له، لكن الرجل لم يكن متفاعلًا مع جمهوره الصغير الذي صنع سياجًا محدودًا من حوله، كان من السهل معرفة أنه يعيش في عالم ليس له وجود، كيانه كله هناك، بجوار رأسه، وجسده هنا فقط كي لا يعامله الناس على أنه عفريت من الجن، لكنه جسد سلبي وبارد، لدرجة أن قياس الحرارة عند العنق لابد سيختلف كليًا عنه عند الكتف، رأسه يحيا على أنقاض جذعه وبعض ذكريات قديمة، لم تعد تصرفاته وكلماته الدافئة في حسبان أحد، لدرجة أن الناس لم تعد تشغلهم نوعية ذلك العالم الذي يسرح فيه، بل يكتفون فقط بمعرفة أنه يسرح في عالم بعيد عنهم.

يقوم مثل قرد كبير هدّته السنون وشفطتْ منه كل نشاط

ممكـن، منحـنٍ ولـه قتـب واضـح لا تخطئـه عـين، يتحـرك مـن مكانـه بثقـل ضفـدع مربـوط بأصفـاد، يحـرك قدمـه قليـلًا ثـم يعيدهـا إلى المـكان نفسـه، تتقصـف أوراق الأشـجار الجافـة تحـت قدميـه، وكمـن تـاه منـه شيء منـذ زمـن بعيـد يلـف حـول الشـجرة ببـطء، يلمـس لحاءهـا ويسـتند إلى أحـد الفـروع، ثـم يعـود مـن جديـد لكلماتـه التـي لا يفهمهـا مَـنْ حولـه:

«لـو عـدتِ ليـوم واحـد. آه. سـوف أنظـر في عينيـكِ حتـى يـوم الديـن. ليفضيا لي بـالأسرار».

يمـر شـخص يقاربـه في العُمـر، يوجـه كلماتـه إليـه مـن بعيـد قبـل أن يُقبـل عـلى الجمهـور الصغـير:

«لقـد نقلـوا كل شيء منـذ خمـس سـنوات، هنـاك عنـد أطـراف المدينـة. ونقلـوا معـه مـا تريـد. لم يعـد أحـد هُنـا».

يقـول توضيحـه السريـع ثـم يمـضي لحالـه. لا تبـدو عـلى العجـوز علامـات سـماع الرجـل العابـر، لكنـه يكمـل مـا بـدأه:

«يـا كلكـم. ليتكـم تتعظـون. تنظـرون في أعينهـن مباشرة. كسـهام الصيـد. فربمـا تكـون المـرة الأخـيرة التـي فيهـا تُبـصرون».

كان الجمهـور الصغـير قـد ازداد في العـدد، أصبحـوا حـوالي عشريـن، لكنهـم غـير ثابتـين، فينـصرف أشـخاص ويـأتي غيرهـم، كأنهـم اتفقـوا بشـكل غـير معلـن عـلى أنهـم يظلـون عشريـن، لا يزيـدون ولا ينقصـون.

عندمـا خـارت قـواه وأصبحـت الجلبـة أعـلى مـن قـدرات أحبالـه الصوتيـة صمـتَ، أو بـالأدق صمـت لسـانه فقـط ولم تصمـت مناجاتـه الداخليـة وتعبـيرات ملامحـه. ربمـا ازدادت حِـدَّة عندمـا همـد لسـانه عـن الحركـة، قـام وهـو يحمـل الشـنطة الكبـيرة المملـوءة بهدايـا المـارة

الطيبين، أمسك بأرغفة الفينو المحشوة بالرومي والبسطرمة وفركها في الأرض، أخذ ينثر فتاتها وهو يسير ببطء:

«ربما أنتِ الآن جائعة».

ثم علق زجاجة المياه في حبل وربطها في جذع الشجرة، استل دبوسًا وثقب الزجاجة من قعرها، وَخَزَها أكثر من مرَّة فخرَّت قطرات منتظمة غاصتْ تحت أوراق الأشجار الجافة:

«وربما أنتِ الآن عطشانة».

ترك الزجاجة تُفرغ ما فيها ببطء وابتعد قليلًا، ثم تاه وسط الناس وكأنه واحد منهم، حتى أنهم عندما سألوه لم يرد، كان يكتفي بهز رأسه على كل كلامهم، مشى بعيدًا ولم ينظر خلفه ولا مرة واحدة.

النُّطفة وروحها

قبل أن يُشق لي محجران وأرى، وقبل أن أعرف شكل الحروف، رأيت ناسًا وأحداثًا ما زلت أبحث عن مكان لقائهم الأول، أطفالًا نبتت لهم ذيول بين سيقانهم، ونفرت لهم خياشيم تغلق نصف فتحة الفم، فأصبحوا بذلك لا يخشون الأمواج ولا الأعماق ولا الارتفاعات، فقد نبتت لهم، في مراحل لاحقة، أجنحة عند الخصر تستطيع حمل الواحد منهم لما فوق السحاب بقليل، أما الرجال فكانوا بثلاثة أقدام، ظلت القدم الوسطى تنكمش وتتنازل عن عظامها حتى أصبحت في حجم إبهام، ثم بدأ ينمو حولها شعر غزير دون أن يكسوها، على عكس القدمين الأخريين.

كان هناك أيضا نساء يرقدن على أجنابهن في انتظار أبنائهن، انتزعت إحداهن صندوقي الشمعي من صناديق لافتة ومثيرة، ألوان كثيرة كنت أراها، لم يعد لها أي وجود الآن، النظر المحدود لعينيّ أحاط بما يجب عليّ رؤيته، أفتحهما على آخر اتساع، لا فائدة، فالطريق الطويل لعملية الانتزاع يأخذ الكثير من متعة الروح، أين الأسد المستكين الذي يمشي على ستة أقدام وهو يتأمل لحم الغزالة المترهل وخطوتها البطيئة؟ أين ذهبت السلحفاة التي تطير وهي تتنازل عن مئات السنين من عمرها؟ والأرنب الذي يسير ببطء تائهًا كالمنفي في الأرض، أشجار كثيرة تتحرك باتجاه نهر طويل بأوراقها وثمارها، تذهب للحيوانات في المراعي، تتوقف عند فمها الكبير الذي يقسم الرأس لرأسين.

رأيت رجلًا عجوزًا ومنكمشًا يسير بجوار البهائم وهو يصرخ «البرسيم يأكل البهائم. البرسيم يأكل البهائم» اقترب منه عجوز آخر حتى يتبين الأمر، وكعادة العجائز لا يلحقون شيئًا. كانت

البهائـم مائلـة عـلى جنبهـا ونافقـة، وعـرف العجـوز الأول أن البرسـيم كان مسـمومًا.

كان هنـاك في وعيـي الـذي لم تسـمح ظـروف مـا باكتـمال تشـكيله كوبـري صغـير يشـبه زلاجـات الأطفـال، لـه سـطح فـضي، يرسـو في ميـدان كبـير بمثابـة الرحـم المـلآن بالأطفـال دومًـا، ينزلـق الطفـل وهـو يلهـو، يلبـس الكافولـة ويهـرش فيـما بـين فخذيـه، يلتقطـه أحـد الأبويـن ويذهبـان، يـأتي غيرهـما فيلتقطـان طفـلًا آخـر... وهكـذا، المعدة والقصبـة الهوائيـة لم تُخلقـا بعـد، كان في البطـن طبقـان أسـطوانيان، واحـد عنـد الصـدر والآخـر عنـد البطـن، واحـد كالماجـور مهمتـه تنظيـم الهـواء، عندمـا يفـرغ ينـام صاحبـه، أمـا الآخـر فهـو للطعـام والـشراب، عندمـا يُمـلأ يجـري الموعـوك إلى الخـلاء.

بـدأت الأجسـاد تشـق طريقهـا لمعرفـة الـروح، كل روح تلبـس الجسـد المناسـب، كانـت هـذه العمليـة هـي الأشـد خطـورة في كل المراحـل، فهنـاك بعـض الأرواح التـي سـكنت أشـخاصًا عـن طريـق الخطـأ، ظلـت هـذه الأرواح البائسـة تتحـرك وتتلـوى داخـل أجسـادها الضيقـة؛ حتـى يصـل صاحبهـما المسـكين لـشيء مـن اثنـين، إمـا اللامبـالاة والتغـاضي عـن كل مـا يشـعر بـه إذعانًـا للقوانـين الجديـدة، وإمـا الجنـون الـذي غالبًـا مـا كان يصـادف الأرواح الحـرة الشريفـة، كانـت عمليـة التوزيـع غالبًـا غـير عادلـة.

فمـن أكـثر المشـاهد التـي كنـت أراهـا ولا أتذكـر ملامـح أشـخاصها ولا تفاصيـل مـكان حدوثهـا، عندمـا رأيـتُ رجـلًا عجـوزًا يضاجـع عنزتـه بعد أن يلهيهـا بعيـدان البرسـيم، دخـل عليـه شـيخ صالـح ورآه عـلى هـذا الوضـع، فـما كان إلا أن نهـره عـلى فعلتـه ولم تهـدأ ثورتـه إلا عندمـا اسـتتابه.. وندمـت.. وعزمـت.. أكيـدًا.. ألا أعـود.. أبـدًا.. أبـدًا.. «إن لم

ترتـدع عـن فعلـك هـذا سـأكون أول مـن يبلـغ زوجتـك الجميلـة»، قـال الشـيخ الصالـح ثـم انـصرف، أخـذ يـدق عصـاه فـوق الأرض بشـكل تمثيـلي، يخفـف وقـع العصـا وكأنهـا تبتعـد بـه عـن المـكان، خَـدَعَ صاحـب العنـزة وأوهمـه أنـه انـصرف، وعندمـا تلصـص عليـه مـن ثقـب البـاب وجـده قـد عـاد مـرة أخـرى لمـا نهـاه عنـه، فـما كان منـه إلا أن دفـع البـاب وأمطـره بوابـل مـن أقـذع الشـتائم، أخـذ يضربـه بالعصـا ويركلـه، والمسـكين لا يقـوى عـلى الـرد، ولكنـه يقـوى فقـط عـلى الدفـاع عـن نفسـه بذراعيـه، صرخ الشـيخ حتـى جـاءت زوجـة الرجـل ورأتـه عـلى هـذه الحـال، توسـعت الدائـرة حتـى أصبـح المشـهد يضـم أهـل البلـدة جميعـا، وقفـت الـدواب وهـي تنظـر لصاحـب العنـزة عـلى أنـه بطـل، يريـد أن يُحسِّـن السـلالة بمولـود نصفـه مـن البـشر ونصفـه مـن الغنـم، خطـوة عـلى طريـق عـودة بعـض الحقـوق لأصحابهـا، كانـت زوجتـه وأولاده والشـيخ يرونـه رجـلًا نجسًـا، لا يسـتحق سـوى الشـنق في ميـدان عـام، كيـف يـترك زوجتـه الجميلـة التـي يغازلهـا الرجـال في كل خطـوة، وينظـر لعنـزة؟ أمـا آراء أهـالي البلـدة الكثيريـن فقـد كانـت مثلهـم كثـيرة ولا مجـال هنـا لذكرهـا، لكـن يمكننـي أن أقـص كيـف عاقبـوه.

وقـف الرجـل في قفـص مـن حديـد، النـاس المعطـرون الذيـن يلبسـون الوشـاحات يتلـون عليـه رأيهـم في المسـألة، سيسـجن خمـس سـنوات، تقبـل الرجـل الحكـم بصـبر وعـدم انزعـاج، فقـد كان يعرف تمـام المعرفة أن روحـه بهـا خلـل، لكـن عقلـه سـليم ومتـزن وهـو غـير نـادم عـلى مـا فعـل، إنمـا نـادم عـلى نظـرات النـاس الذيـن لا يفهمـون طبيعـة روحـه، كان يعـرف أن مـن حكمـوا عليـه إنمـا تسـتقر أرواحهـم بـين ضلوعهـم في سـكينة وراحـة بـال، وأنهـم راضـون عـما يفعلونـه، مثلـه تمامـا، فهـو

أيضا راضٍ عما فعله، ولا يرى تعارضًا سوى في إيحاءات الناس الذين لم ينتبهوا إطلاقا لهذا الخلل الذي أصابه قبل أن يستقبل روحه.

قبل أن يدخل هذا الكيان الشفاف إلى الجسد يكون نقيا، مبهما إلى حد ما، المفاجآت لا تعرف بالطبع أنها مفاجآت، تسارعت عند هذه النقطة روحان وولجتا كيانًا واحدًا، كاد التسارع يفتك بالجسد البائس، كان في ذلك الجسد مسام شمعية يمكن ولوج أكثر من روح عن طريقها، والأرواح سابحة في بحور مظلمة وبعيدة كأشباح لم يستدعها أحد، تصارعت الروحان في جسد المسكين، حاول أن يستأنسهما كي يصبحا كيانين ساذجين ففشل، حاول أن يثنيهما عن التساؤلات التي يتوصلان إليها فلم يستطع، تريد كل واحدة أن تثبت أنها على حق في عرض بعض مسلماتها، تتدخل الروحان في كل كبيرة وصغيرة للجسد الشمعي الضعيف، حاول المسكين أن يضع حدودا وجداول صارمة للتعامل معهما فخانه جهده المتواضع، تحددت المسارات بعد ذلك ليس عن طريق البراءة ولا عن طريق الذنوب لكن عن طريق التضارب، تنغرس الروح الشفافة الكبيرة خارج الجسد، يتم الإفراج القسري عن كيانها السحابي الهائم، يحدث ذلك غالبا بمساعدة طلقة طائشة أو صديق خائن أو سائق أعمي رشقت حافلته في قاع نهر.

الموت وسباطة الموز

أشتري الفاكهة بعد كل صلاة جمعة من سيدة عجوز، امرأة قعيدة تجلس خلف أقفاصها. لكثرة ما رأيتها جالسة لم أتخيل لها ساقين، قالتْ لي وأنا أتسوّق الفاكهة بعيني:

«لم تأتِ الأسبوع الماضي!».

«آه».

لم ألتفت لسؤالها بوعي كامل، كنتُ أنظر إلى أنواع الفاكهة لأحدد ما سأشتريه، أقارن بين سباطة الموز الصفراء وأقفاص العنب المرصوصة. يهتز جذعها، تقول:

«أشرف تعيش أنتَ».

أتوقَّف عن التفكير في نوع الفاكهة التي أريدها، تنزل عيني من فوق سباطة الموز، أنشغلُ بِجُملتها الاعتراضية، وأخمن بأن أشرف هذا هو ابنها.

«سبعة وأربعون سنة. وأربعة عيال».

لا أجد ردًا على كلامها، فأنا لا أعرف أشرف، أنا أعرفها هي بالكاد، ولو أنني قابلتها في مكان آخر غير فرشة الفاكهة فلن أتعرف عليها، أحاول أن أبدي تعاطفًا معها، أهز رأسي بأسى، أنتظرها حتى تنهي كلامها وتتبعه بزفرات حزينة وصمت، تتوقف عيني عن فرز البرقوق، وأتأمل سباطة الموز مرة أخرى:

«أصابه المرض البطَّال».

وأُخمن بأنها تقصد السرطان.

«لم يكمل ستة أشهر».

«آه. ربنا له في ذلك حِكم طبعًا».

تلمع عينها وتترقرق بطبقة دمع شفَّافة، تغيم، تتابع شريطًا قريبًا من الأحداث، يمر أمامها ولا أراه، تركز بصتها على فرش الطماطم المقابل لفاكهتها، لا يبدو على ثبات نظرتها أنها ترى الطماطم أو بائعها الذي يصخب بصوت منغم. تمد يدها كالمسحورة إلى منشة الذباب، تضرب بها مرتين فوق العنب، يهيج النحل الكبير وبعض هوام، تتوقف أمامها سيارة نصف نقل، يسألها السائق:

«كم قفص يا أم أشرف؟».

وتفيق فجأة، تهز رأسها برعشة، كمن يتم سحبها من بقايا حلم رقيق:

«خمسة».

ينط صبي صغير كقرد فوق صندوق السيارة، ينزل أقفاص العنب، ثم يتكوَّم مرة أخرى بين البضاعة:

«كان أشرف هو الذي يشتري لي البضاعة من سوق العبور».

«آه».

«أحلى بضاعة».

«فعلا. أكيد كانت بضاعة نمرة 1»

تزداد ضربات المنشَّة، على العنب بالذات.

«ماذا ستأخذ؟».

أتأمل سباطة الموز التي لم تترك خيالي منذ مجيئي، أنتقي الجزء الذي راق لعيني، تمد يدها على العمود الأصفر الكبير وتلفه في الهواء كذبيحة صغيرة:

«كم كيلو؟».

«ثلاثة».

تـضرب المنجـل في السـباطة وهـي جالسـة، تتلقـى بيدهـا الأخـرى الجـزء المقطـوع، تضعـه في الميـزان الـذي لم يطـب، تُضيـف إصبعـين فـرط مـن كومـة صغـيرة بجوارهـا حتـى يكتمـل الـوزن:

«هل أزن لك شيئًا آخر؟».

«اثنين عنب».

لم يكـن مـا يشـغلها قـد غـاب نهائيًـا عـن خيالهـا، تحكَّمـتْ بقايـاه في نظرتهـا الباهتـة للعنـب وهـي تُعبئـه، توقفـتْ يدهـا عـن سـحب العناقيـد ووضعهـا في كفـة الميـزان:

«آخـر مـرة أشرف هـو الـذي اشـترى لي فيهـا العنـب. كان أحـلى مـن هـذا بكثـير».

«فعلا».

«ربنـا اختـاره يـوم خمسـة وعشريـن رمضـان، قبـل ليلـة القـدر بيومـين، أيـام مباركـة».

«أكيد».

لم أكـن متدربًـا جيـدًا عـلى رد كلـمات المواسـاة، أبـدو خائبًـا في مثـل هـذه المناسـبات التـي تحتـاج إلى ملاحقـة المتحـدث بجُمـل معيَّنـة.

بعـد أن وزنـتْ العنـب وضعتـه في شـنطة، ثـم ناولتنـي الشـنطتين وابتسـمتْ، أمسـكتْ بالمنشَّـة، هـاج الذبـاب النشـيط، طـارت النحـلات الكبـيرة وأحاطـت برأسـها مـن جديـد.

الخبيئة والليل

في المكان نفسه من كل عام يقوم بحرق قش الأرز، تكونت من جراء ذلك حفرة في حجم غرفة صغيرة، غاطسة بما يكفي لدفن خمسة أشخاص، جلس على حافتها يتأمل شيئًا ما يبرق أمامه، كان الجو ليلًا، تلمع في السماء نجوم، والقمر يضيء التراب فيتحول لما يشبه سنابل قمح ذهبية، مد يده متوجسًا، رفع يده الأخرى في الهواء تحسبًا لأية مفاجأة، لم تحدث مفاجآت، سحب يده وأصابعه تقبض على شيء ما أشبه بصُرَّة، لكنها ليست كذلك، فالصرّة من ملابس أو خرق، أما الكنز الذي كان من نصيبه فمغطى بغلالة صوفيّة هشَّة كالزغب، حولها شجيرات صغيرة كقرنبيط وليد، ومغطاة بأسنّة ليست جارحة، الأسنَّة ترابية اللون تشوبها حُمرة، تظهر عنها أسنان ذهبية براقة، هي تحديدا ما جذبت انتباهه، لم يحرك عينه عن شعاعها الخلاب منذ رآها، الصرة في حجم رأس ثور، ولكنها مستديرة وغلافها يشبه الفِطر، سحبها ومشاعره متضاربة، فرحة تشوبها رهبة، انتصار، اختصاص سماوي بهِبة كبيرة.

جذب الصرة، رفعها وأخذ يتأملها كمن يناجيها أن تفصح عن سرها. كانت خفيفة بشكل لا يتناسب مع مظهرها الضخم، حملها على كتفه ممسكًا فيها بكل ما أوتي من عزم. ولكنه تذكر عيون الناس «لا يترك أحد أحدًا في حاله»، قال مخاطبا نفسه بصوت غير مسموع، لم تستمر مناجاته طويلا، خلع جلبابه ومن بعده صدريته، ثم خلع قميصه الدبلان ولف فيه كنزه الذي اختصته به السماء دونا عن كل خلق الله، ثم لبس مرة أخرى صدريته وجلبابه ومشى يشق الطريق.

في الليل، القرية كلها نائمة كما لو كان سكانها أمواتًا، يمر على

البيـوت وكأنهـا قبـور، لا يسـمع سـوى هسـيس وقرقعـات خفيفـة وبعـض نقيـق تعـوده مـن كـثرة مـا سـمع فأصبـح كعدمـه. وصـل إلى بيتـه القريـب فكـوّم بعـض ملابـس في دولابـه وأضافهـا لأخـرى بجوارهـا، اخـترع مكانـا فوريـا لكنـزه، ثـم وضعـه برفـق فـوق أعـلى رف، ثـم نـام، ليـس نومًـا كالـذي تعـوده في الليـالي السـابقة، ولكنـه نـوم مـن ذلـك الـذي يجهـد صاحبـه أكـثر مـما يريحـه، لم يشـعر بوجـود زوجتـه جـواره، ولا ولديـه الطفلـين النائمـين.

أيقظـه في الصبـاح ألم في بطنـه، دخـل الحـمام وخلـع جلبابـه وصدريتـه، لمـح بقعًـا حمـراء داكنـة عنـد أعـلى صـدره، لمسـها بإصبعـه فشـعر بـالألم مُضاعفًـا، بُقعًـا كبقايـا عنـب ملطـوع فـوق نصفـه الأعـلى، وبعـد الخـصر حتـى القدمـين بقـع أخـرى تتشـكل، صفـراء لم تتأكـد بعـد، خـرج مـن الحـمام يغالـب الألم ويتسـنَّد إلى الجـدران.

زوجتـه نائمـة، وأبنـاؤه أيضًـا، تحمَّـل الألم عندمـا تذكَّـر الكنـز، خبيئـة الأمـس، اقـترب مـن الـدولاب الـذي يحتويهـا، فتـح اللفافـة، اطـمأن لوجـود كنـزه كـما هـو، لم يسرقـه أحـد، ولم يلمحـه عابـر بالأمـس، وبذلـك، فإمكانيـة تعرضـه للحسـد سـتصبح صِفـرًا، هـذا أكـثر مـا يشـغله، ألاَّ يعـرف أي مخلـوق أن في بيتـه كنـزًا.

اسـتيقظت زوجتـه عـلى الألم نفسـه، وأبنـاؤه، الجميـع يمسـكون صدورهـم وبطونهـم، تذهـب الأم إلى الحـمَّام، وتـرى البقـع الحمـراء تحـت ثدييهـا، والبقـع الصفـراء عنـد خصرهـا، تخـرج وهـي تمسـد صدرهـا بكفهـا، تحكـه بشـدة، يـصرخ طفلاهـا، يجـذب أحدهما ملابسـه بعيـدًا عـن صـدره، ويبـكي الآخـر والنعـاس يغلـق عينيـه، ويسـأل هـو نفسـه: مـا الـذي حـدث ليلـة أمـس؟ لم يـره أحـد وهـو يحمـل الكنـز، فقـد خبَّـأه جيـدا، وتجنَّـب عيـون النـاس، تُـرى، مـن ذا الـذي حسـده

وخمَّـن وجـود الكنـز معـه؟!

الولد والبهلوان

كان يجوب الشوارع بحثًا عن الرزق، يلبس ملابس مزركشة ويرسم ابتسامة وهميَّة فوق ملامحه الشاردة، عندما لم يجد أحدًا يعطيه شلنًا يوحد ربنا؛ ظل يمشي حتى رأى من بعيد مسجدًا، دخل ليتوضأ ويصلي؛ ربما يفتحها الله عليه ويجد أحد العابرين يعطيه شلنًا، وعندما بدأ في الوضوء اختلطتْ الألوان على وجهه، وظهر بقوة اللون الأبيض مع الأحمر، وجهه يكاد يخلو من الملامح، لكنه مُشع ومُضيء.

عندما بدأ في الركعة الأولى كان يُصلِّي وحده، وفي الركعة الثانية وقف من خلفه خمسة رجال، وقبل انتهاء الصلاة مباشرة أصبح وراءه عشرون رجلا، انتهى البهلوان من الصلاة، لكنه شعر بضيق لا يعرف له سببًا، ربما حنَّ لألعابه الحُرَّة قبل أن يخرج من المسجد، فقام وقدم لجمهور المُصلين بعض فقراته، قفز وتزلج على الأعمدة الرخامية، تعلق بمروحة السقف كقرد يقفز بين الأغصان، وهُنا، انقسم المصلون في المسجد إلى فريقين، فريق يتفرج ولا يريد لفقرات البهلوان أن تنتهي، والفريق الآخر يرى أن ما يحدث في بيت ربنا حرام ولابد من طرده، استمع البهلوان لكلمات الفريق المعترض وقال لنفسه:

«حتى بيت الله سيطردونني منه؟ أنا لا أجيد الصلاة. وأخطئ في قراءة الفاتحة، ولكنني أجيد عمل البهلوان ويمكنني إعطاء دروس فيه».

أمسكه خادم المسجد من قفاه ومشى به في اتجاه الخروج، قال له:

«هذا الذي تفعله ينفع هُناك في السيرك. أما هُنا فلا يوجد إلا

الصلاة وقراءة القرآن يا كافر».

لم يَغضب البهلوان من طرده بهذا الشكل المُهين بقدر غضبه من وصفه بال»كافر». خرج حزينا يجوب الشوارع حتى قابل طفلا صغيرا لا يملك من النقود شيئا، ولكنه برغم ذلك يملك فضولا قويًّا، فقال للبهلوان:

«أريدك أن تُعلمني كيف تقفز دون أن تقع».

رد البهلوان على الطفل:

«وأنا أريدك أن تعلمني كيف أُرضي ذلك الشيخ الواقف هُناك. اتفقنا؟».

فقال الطفل:

«اتفقنا».

ظل البهلوان يُعلم الطفل الألعاب لثلاثة أيام، والولد يُحفِّظ البهلوان القرآن ويعلمه أصول الوضوء وعدد الركعات في كل صلاة، في اليوم الرابع كان كل منهما قد أتقن ما علمه الآخر إيَّاه، ثم ذهبا إلى المسجد، صلى البهلوان وجلس يقرأ القرآن، وصلى الطفل ثم أخذ يقفز بين مراوح السقف ليُجرِّب ما تعلمه، ولكن خادم المسجد لم يتعرض للطفل باللوم، فاقترب البهلوان منه وسأله: «لماذا لم تنهر الطفل مثلما فعلت معي منذ أربعة أيام؟» فرد عليه: «هذا طفل لا يؤاخذ فيما يفعل. بالإضافة إلى أنه ابني. ولكن قل لي من علمك قراءة القرآن بهذا الصوت الجميل؟» فقال البهلون: «ابنك»، فرد خادم المسجد:

«ما شاء الله».

رددها ثلاثا، ثم أشار لابنه الطفل فأتى مسرعًا وهو يقفز ويلف

حـول الأعمـدة الرخاميَّـة، فسـأله أبـوه:

«ومن الذي علمك أن تقفز هكذا مثل الشياطين؟».

فأشـار الطفـل إلى البهلـوان، انتفـض الأب خـادم المسـجد وأمسـك بالبهلـوان مـن قفـاه مـرة أخـرى وسـار بـه في اتجـاه الخـروج، ثـم قـال لـه:

«اخرج من بيت الله يا كافر».

خـرج البهلـوان، وأثنـاء سـيره قابـل طفـلا آخـر يمسـك نايًـا في يـده، فقـال للبهلـوان:

«علمني كيف أقفز مثلك دون أن أقع».

فقال له البهلوان:

«وأنـت علمنـي نفـخ الهـواء في النـاي. ليتنـي أعـرف كيـف تخـرج مـن بـين ثقوبـه الأنغام».

أخـذ البهلـوان يعلـم الطفـل حركاتـه وقفزاتـه، والطفـل يُعلِّمـه العزف عـلى النـاي. جلـس البهلـوان عـلى حجـر، ينفـخ في النـاي ويتفـرج عـلى الطفـل وهـو يقفـز، ولكنـه لم يبتعـد كثـيرًا عـن محيـط المسـجد.

البائع وخياله

«فووول»

حـماري الوحيـد، يـا صديقـي الجميـل، أنـت لـن تفـتن عـليّ، أنـا متأكـد مـن ذلـك، فالفتنـة أشـد مـن القتـل، القتـل، هـه، لقـد اقتربنـا مـن الموضـوع يـا حـماري، المهـم ألا تنقـل مـا سـأقوله لزبائنـي الملعونين، ليـس لأنـك تعـرف تلـك اليـد التـي تقـدم لـك البرسـيم مرتـين في اليـوم، فأنـت تُخلـص لأي يـد سـواء تمتـد إليـك بالبرسـيم أو بالعصـا، أنـت لا تبـالي؛ كالعاشـق عندمـا يحـب الدنيـا كلهـا، فـلا يهتـم بمـن يكرهـه أو يسـخر منـه.

اسمع يا حماري، هناك أمر جديد أريد أن أحكيه لك.

هـؤلاء الزبائـن الذيـن أناديهـم بأسـماء مسـتعارة، مثـل: «يـا باشـا»، أو «يـا هانـم»، أو «يـا حبيـب قلبـي» كل هـذه الألقـاب إن هـي إلا أسـماء تعلمتُهـا مـن قسـوة الأيـام، سـماها لهـم مَـنْ قبلنـا، وأنـا أقولهـا مـن أجـل راحـة دماغـي ليـس إلا، لكنـي في الفـترة الأخـيرة راجعـتُ نفـسي، أي باشـا هـذا الـذي يلعننـي في سِره كلـما أخـذ كيـس فـول؟ يرفـع عقدتـه بـين أصابعـه ويرمقـه مـن فـوق لتحـت، يظـن أني أسرقـه؟ وأي هانـم تلـك البدينـة التـي تفـوح رائحـة ملابسـها بنـتن لا يحتـاج لحاسـة شـم قويـة كي تكتشـفه، وأي حبيـب قلبـي ذلـك الولـد الـذي يهـرول إليّ دون سروال والذبـاب ملمـوم حـول رأسـه كالدوَّامـة؟

في البدايـة، قلـت في نفـسي إننـي سـأتجنب التلفـظ بمثـل هـذه الألقـاب بعـد ذلـك، سـأنادي الرجـل باسـمه، محمـد أو جرجـس أو عبدالحليـم، وأنـادي المـرأة باسـمها، ناديـة أو شربـات أو أم الخـير، أمـا العيـال، فسـأكتفي بـأن أقـول لهـم «يـا بابـا. أو يـا قمـورة». لكـن لم يطاوعنـي لسـاني، أتعـرف لمـاذا يـا حـماري المخلـص؟ لأننـي ولـدت

فوجدت الدنيا جاهزة لاستقبالي وفيها مكاني بالضبط: ما سأعمله، ومن سأتزوجها، وأيضا ما سوف أقوله وما سيُقال لي، ما سأعيشه وما سأموته.. كل ذلك سبقني إلى هنا، إلى هذه الأرض، لم ينقص فقط إلا مجيئي عندما استوت تلك الأشياء وتربَّعتْ في انتظاري جئتُ أنا، لم يمكنني تغيير ما هو قائم. للحق، كانت هناك مساحة لا تتعدى واحدًا بالمئة، هي مساحة الحرية المتروكة لي، لم تكن مخصصة لاختيار مهنتي، ولكنها تتمثل في اختيار الموقد الذي أطهو فيه قِدرتي، أو الشوارع التي أطوف بها، أو اختيار وجبة الغداء، تماما كطفل يختار بين ثديي أمه، يمين أم شمال، فقط يمين وشمال، لكنه لا يستطيع تغيير الأم نفسها، هذه الاختيارات حُرية تحيط بها أسوار، محدودة جدًا وليس لها أبدا طعم الحُرية.

ما الجديد؟ حتى الآن وأنا أحدثك بما أقوله لك كل صباح تقريباً، ثم أعلق صفارتي في رقبتي، أنفخ فيها وأصيح:

«فووول»..

لكنني الآن يا حماري العزيز دبرتُ شيئًا، لا تقل لأحد، أعرف أنك مخلص لأنك لا تتكلم، أما لو تكلمت فسوف تساومني على سكوتك، أشكرُ الله العزيز القدير على أنك مخلوق أخرس حتى يوم الدين، وذلك لحسن حظي، لذلك سأكلمك وأنا مطمئن، اسمع، لقد نويتُ اليوم أن أضع سمًا في قِدرتي لزبائني، هؤلاء الحمقى الذين يصدقون أنهم بهوات وباشوات وهوانم، لقد سئمتُ منهم جميعًا، لم يعد لي صبر على تحمل نزقهم وجلافتهم وقذارة رائحتهم.

في جيوبهم رزقي؟ نعم، لكني مللتُ من هذا الربح القليل، فهل يُعقل يا حماري أن أطوف الشوارع والأزقة كل يوم من الفجر وحتى أذان العصر ولا أستطيع شراء حذاء، منذ سنة وأنا

لا أستطيع شراءه، ودوائي أيضًا، لا أستطيع أن أشتريه كاملًا ولا مرة واحدة، وملابسي، ماذا أقول لك، أرى البهوات الحقيقيين وهم ينزلون من سياراتهم التي لا يجرَّها حمار، يتعطرون ويتبخترون وفي أيديهم هوانم حقيقيات، عندئذ يا حماري لا أشعر بالفقر، ولكن أشعر بأنني غير موجود على خريطة الدنيا، أو جئتُ في زمن غير مناسب لوجودي.

هذه الزجاجة، انتظر قليلا، سأخرجها لك من سيالتي، هه، هذه هي، سأدلقها كلها في القدرة الكبيرة، وعندئذ؛ سيأكلون الفول وينامون، ثم لا يستيقظون إلا على صوت الملَكين، ثم أسرح بعربتي في مكان آخر أقل قذارة، ولكن يا حماري هناك شيء يجعلني لا أجرؤ على هذه الفعلة، أنني لا أضمن زبائن غير هؤلاء، وهذا هو مربط الفرس، سامحني على هذا التشبيه، فزبائني هُم الذين يملأون جيوبي بجنيهاتهم منذ الفجر وحتى أذان العصر، وهم أيضًا قد تعودوا على فولي الذي أبيعهم إياه، فأنا لا أضمن أن تعجب محتويات قِدرتي أناسًا آخرين في حي راقٍ جديد، وعندئذ، يوم لا ينفع ندم؛ من أين سآتي بزبائني مرة أخرى بعد أن يواريهم التراب؟

لذلك أنا آخذ رأيك، أنت الآن مستشاري يا حماري، أعلم أنك لا تهتم سوى بدس رأسك في كيس التبن أو مضغ حِزم البرسيم، لكنك يمكن أن تهز رأسك لو أعجبتك الفكرة، آه، أنت تهز رأسك باستمرار، وكأن كل الأفكار التي في الدنيا تعجبك، لو أنك تسمعني الآن فاحتمال أن تسخر من كلماتي، تقول في نفسك: «وهل يستشير الحمار إلا حمار؟» انتظر قليلا، سأقول لك، هؤلاء البشر الذين تراهم بعينيك الواسعتين وتسمعهم بأذنيك الفارعتين، كلهم تقريبا،

وكأنهم انتهزوا الفرصة لوجودهم معي في عالم واحد، انتهزوها لكي يكونوا بالوضاعة التي تراها، فلو رآني أحدهم جائعًا لن يقدم لي رغيفًا، وأنا أبيع الفول على عربتي التي تجرها وأمشي بجوارك حتى تتورم قدماي، فيظهرون أمامك طيبين لأنهم يشترون مني وينفعونني، لكن هؤلاء الناس أنفسهم لو رأوك وحدك فسوف يسرقوك ويبيعوك، وربما ذبحوك يا حماري وأكلوا من لحمك، وسيبيعوا عربتي الخشبية حاملة القدرة ويفككوها. لذلك، فأنا أكنّ كل الكره لهم جميعًا، أبيعهم فولي لكن لا طاقة لي برؤية ملامحهم ولا شم رائحتهم، أنا لا أريد التخلص منهم لشر في نفسي، فأنا أعرف ربنا حق المعرفة وأصلي الجمعة في المسجد، هم الذين لا يعرفون، هم الذين لا يعطون المحتاج، وبسبب غضبي من تفضلهم عليّ فكرتُ في أن أضع السُم في القدرة، ثم أمسك بصفارتي المعلقة في عنقي، أصفر بها وأنادي:

«فوووول»..

ما رأيك فيما قلت؟ أنا لا أختبرك، السم وقد قمت بشرائه، الزبائن و سأختار منهم من لن يطلع عليه نهار الغد، لا أدري كيف نبتت بداخلي هذه الفكرة الجهنمية، من العادي ألا يعرف الإنسان كيف نبتت في رأسه فكرة، أضف إلى ذلك أنني رجل عجوز، فالأيام تطعن السن كل يوم، مع مرور الوقت يصبح لها مخالب وأنياب، وأنا، بعد أن تخطيت السبعين، اتسع حوضي وتفاقمت أمراضي، بعد أن تقوست قدماي بسبب اعوجاج عمودي الفقري، لم أعد أُبقي على شيء، فأريد أن أسلِّي نفسي بمناظر جديدة قبل أن أموت، لذلك، اخترت أن أسلي نفسي برؤية الناس وهي تموت، أتعرف يا حماري أنها متعة لا تضاهيها متعة، أن ترى شخصًا من نفس جنسك وهو

يـودع الحيـاة، ليـس هـذا بالضبـط، لكـن المتعـة القصـوى أن تكـون عـلى عِلـم بأنـه سـيموت الآن، آه، أفيـون، واللـه أفيـون يـا حـماري، الشـخص مـن هـؤلاء يتشـنج، يترنـح، ثـم، خـلاص نهـائي لا رجعـة فيـه، متعـة لا أعـرف لهـا مصـدرًا، لا أجـد بديـلًا عـن السـعي وراءهـا وتنفيـذ مـا يوصلنـي إليهـا في أسرع وقـت. الأفـكار تـدور في رأسي، والصفـارة الآن بـين شـفتي، أنفـخ فيهـا:

«فووول»..

هـه، أتعـرف؟ وأنـا أشـتري هـذه الزجاجـة كذبـت وقلـت للبائـع أنهـا للفـئران، تخيـل؟ فاصلـتُ في الثمـن، بالضبـط كـما أفاصـل في شراء البرسـيم لـك أو في سـعر طهـو القـدرة عنـد صاحـب الموقـد، أفاصـل في المـوت كأي شيء عـادي مـن أمـور الحيـاة.

لـن يبقـى إلا أن أضـع في قِـدرتي هـذا السـم وأدوّره بمغرفتـي الطويلـة، ثـم أنتظـر صاحـب الحـظ السـيئ الـذي سـيفتتح الـشراء مـن القِـدرة. لقـد أتعبنـي السـير وتورمـت قدمـاي. ثـواني قليلـة يـا حـماري، سـأنتظر الزبـون الأول، عيـل كان أم باشـا أم هانـم، هـو ونصيبـه، مـن تدفـع بـه قدمـاه إلى هُنـا هـو صاحـب الافتتـاح الكبـير، أوكازيـون، سـأبيعه مجانًـا دون مقابـل، المقابـل المعتـبر أن أرى الزبـون وهـو يـأكل الفـول، يتلـوّى ويصفـر وجهـه، ثـم يقـع عـلى بـوزه فتتحطـم أسـنانه. نصـف المنطقـة سـتتغير منامتهـم في الغـد، أريـد أن أعطيهـم تذكـرة تقيهـم شرور الدنيـا، فيتركونهـا سريعًـا، وأتفـرج عليهـم وهـم يغـادرون، وهـم يُحلّقـون بأرواحهـم ويتركـون لـلأرض نفاياتهـم.

لكـن شـيئا مـا لا أعرفـه منعنـي مـن وضـع السـم في القـدرة، لا أعـرف لمـاذا تراجعـتُ؟ لم أسـتطع التوصـل لوصـف ذلـك الإحسـاس الـذي سرى في عروقـي كالبنـج، قـوة غامضـة وإرادة مبهمـة، يمتلكهـا كيـان أكـبر مني

ومـن زبائنـي وقـدرتي والكـرة الأرضيـة كلهـا، منعنـي، فألقيـتُ زجاجـة السـم الصغـيرة بطـول ذراعـي، اقـترب كلـب يشمشـم فيهـا، جريـتُ تجاهـه وضربتـه بطوبـة كي يبتعـد ولا يقرضهـا بأسـنانه، انحنيـتُ عليهـا والتقطتهـا، قذفـتُ بهـا فسـقطت في بالوعـة مفتوحـة وغاصـت، الميـاه الغامقـة لم تُبـيِّن الزجاجـة، وقفـتُ أمامهـا وأنـا لا أسـتطيع عمـل شيء للصراصـير المسـكينة.

عُـدتُ إلى قـدرتي بعـد أن تخلصـتُ مـن الزجاجـة، لا أعـرف يـا حماري مـن أيـن أتتنـي تلـك الهمـة الكبـيرة لتدويـر المغرفـة في قـدرتي، دوَّرتهـا بـكل قـوتي، وأخـذت أهـز جيبـي بمـا فيـه مـن نقـود لأسـتفيق مـن ذلـك البنـج الغريـب الـذي اسـتحوذ عـلى عقـلي، لا أريـدك أن تتذكـر مـن كلـماتي حرفًـا يـا حـماري.

أمسـكتُ صفـارتي المعلقـة في رقبتـي، نفخـتُ فيهـا بنفـس طويـل ممطـوط ومتقطـع، كنـتُ مبسـوط الـروح، منتشـيًا، لا أعـرف لمـاذا. أنـادي الآن بصـوت أعـلى مـن المعتـاد...

«فووووول»

مريم ومي

البيت بيت مريم، مي طرقتْ الباب، وفتحت مريم، دخلت مي، ونظرت، تأملت وبحثت:

«أين الخروف؟».

قالت مي وعينها على الحمام:

«بالأمس ذبحناه».

مريم في «كي جي تو»، ومي داخلة «كي جي وان» بعد شهر.

قفزتا فوق الأنتريه، وتحت الكنبة، نطت مريم على فرو أبيض مفروش أمام المطبخ:

«هذا ما تبقى من خروف العيد».

سألت مي وعينها معلقة على الفرو وجزمة مريم أم كعب عريض:

«وسال الدم؟».

«كثيرًا جدًا».

تنظر مي لمريم نظرة توقير، فهي كبيرة وفي «كي جي تو»، وحافظة لغاية جدول ثلاثة، ومريم تعاملها بأنفة الكبار وعدم صبرهم. رفعت مي الفرو ووضعته على كتفيها الصغيرتين وصاحت:

«ماء.. ماء».

قفزت مريم إلى المطبخ وسحبت الحبل الذي كان يربط الخروف، دائرته لا تزال معقودة وتكفي رأسًا، وقطعة ممدودة بطول متر، مي تمشي على أربع، وتردد بصوت ضعيف مخنوق:

«ماء.. ماء».

أطاحت مريم بالحبل في الهواء، فلفّ دائريًا وقبضت أصابعها عليه:

«تلعبي معي يا مي؟».

تظهر عينا مي من تحت الوبر الأبيض، تقول وفمها مدفون في الفرو الصوف:

«ألعب؟».

دون تفكير طويل قالت مريم:

«لعبة الخروف».

سقط الفرو عن كتفي مي ورفعته ثانية، بالكاد وصل صوتها الخافت لمريم:

«لا أعرفها. لكني أريد أن ألعبها معكِ».

تقترب مريم من مي، تقف مباشرة أمامها، رأس مي منكس، ويداها وقدماها تتحرك ببطء، تلف في محيط سجادة صغيرة حمراء، كان اقترابها من حافة السجادة كأنها هاوية بشكل ما، علقت مريم الحبل في عنق مي، وبقبضة عفيّة سحبته. مي تبتسم بعد كل مأمأة، وكأنها تستعطف جمهورها الوحيد لكي يُثني على تقليدها للخروف، ومريم معجبة بالابتسامة الصغيرة، فبعد أن كانت تمترس قدميها في الأرض وتجر الحبل الكتان المفتول الذي في يدها؛ أعطت ظهرها لمي ورفعت الحبل على كتفها، أسرعت في جرّ الخروف المفترض خلفها، تحولت ابتسامة مي بعد المأمأة لضحكة، مي تمأمئ ثم تضحك، وتقطع ضحكتها شرقة كالزغطة، ثم تُكمل الضحكة، وتُكمل اللعبة «ماء.. ماء».

في البداية، كانت شراشيب الفرو تحمي عنق مي، لكن بعد أن

تزحزح الفرو ثم انزلق على ظهرها بسبب الحركة المستمرة تمكّن الحبل من عنقها الصغير. استطاعت مي أن تحافظ على إيقاع المأمأة، بعد بضع خطوات يخرج صوت منغم، بسبب الحركة تَقِلّ قوته، وحدته، تضطرب ضربات قلبها، ويزداد الشهيق سُرعة «ماء.. ماء».

بدأت مي تضيق باللعبة، في البداية، تخيلت هيئتها في الخروف، صوته وبراءته، لكن الحبل يحزّ الآن في رقبتها الضعيفة، ويحك حسنة طالعة في ذقنها الناعم، حاولتْ رفع الحبل، ضغط العُقدة كان أقوى، عزم الجر يغالبها، تحاول مرة أخرى، فلا تستطيع الارتكاز على ثلاث. في التوقيت نفسه الذي بدأت فيه مي تشعر بالملل من اللعبة؛ كانت الهمّة قد تملكت من مريم، دب فيها نشاط أقرب لحُمى خفيفة، أسرعت في جر الحبل ولم تلتزم بمحيط السجادة الحمراء، تحشرجت المأمأة، ثم انقطعت، ومريم تثب بالحبل، تركض، تريد أن تضع حدا عنيفا للعبة، لا تريدها نهاية تقليدية، تثب، تركض «ماء.. ما.. مـ» ومي تريد أن تنادي مريم، إحساسها بالخطر توقف عندما اهتزت الأشياء من حولها وتحول كل ما يحيط بها لشكل أقرب لحلم يبدأ، أو يضع أوزاره، أو ينحرف عن الخط المرسوم ويندمج مع أحلام أخرى.

لما فشلت محاولات مي في مواكبة السرعة وَثَبَتْ خلف صديقتها، هذه الآلة التي فسدت فجأة، أو اشتد عليها التيار بلا مقدمات، كانت تشبّ على قدميها وتقفز، هذه الحركة بالذات أثارت في مريم شيئًا مبهمًا، أغرتها، ربما ظنَّت أن مي متجاوبة مع اللعبة بشكل ما، فعبّرت عن الإعجاب بهذه القفزات. وقع الفرو نهائيا عن ظهر مي وداست عليه مرتين أثناء انشدادها خلف الحبل.

أخـذت الحُمـى إيقاعًـا أعـلى، جـرّت مريـم الحبـل بسرعـة دون اسـتراحة، مـي تشـد الحبـل وفـور أن يرتخـي تجذبـه مريـم مـرة أخـرى بقسـوة. انبطحـت مـي عـلى الأرض، تمـددت وارتعشـت قدماهـا، نـام شـعرها الأصفـر فـوق الفـرو الأبيـض الواقـع بجوارهـا. لم تنتبـه مريـم لنـوم مـي إلا عندمـا أصبـح الحِمـل ثقيـلا، وبعـد أن كانـت تجـر الحبـل أصبحـتْ تجـرّ مـي. رمـت الحبـل واقتربـت منهـا، ملّسـت عـلى شـعرها، أبعـدت الحبـل عـن أذنهـا والحسـنة، دنـت منهـا وقالـت:

«لم تنتـهِ اللعبـة يـا مـي. سـيأتي أخـي مـن المدرسـة ويعمـل دور الجـزار».

عمي وأبي

وقف عمي يحدِّث أبي:

«عاوز الحبل».

كانت هناك جاموسة قريبة منَّا، تقف حرُة بلا قيد، بحث أبي عن طلب أخيه الكبير، في البداية؛ كان يبحث بلا مبالاة، كأي إنسان يبحث عن شيء عادي، وعندما وجد عمي مصممًا على إحضار الحبل حالا، في هذا التوقيت بالذات، بحث مرة أخرى بشكل أكثر اهتماما، لكنه أيضا لم يجده، يصرخ عمي الذي أصبح كأنه يفقد بعض شعيرات مخه مع صوته:

«قلت عاوز الحبل».

ويقول أبي الذي بدت ملامحه تأخذ طريقها التدريجي للتوتر:

«حاضر. اهدأ. سأحضره حالا».

ويهيم أبي، يصول ويذرع الدار كلها باحثًا عن طلب عمي الذي لم يعد يرى في الدنيا كلها غيره، الحبل، يبحث فوق تلال الذرة الناشفة وتحت الكنب وفوق السطح، وعندما يفشل للمرَّة الثالثة يسأل أمي، ولا تجيبه، تفضِّل أن تساعده بشكل عملي وتبحث معه عن طلب أخيه، لكنها أيضا لا تجده، فيخرجان لعمي الجالس على المصطبة، وعندما يلمح أيديهما خاوية بلا حبل يقوم من مكانه ويضع يديه حول خصره:

«أنا قلت عاوز الحبل حالًا. يعني عاوز الحبل حالًا. تصرفوا».

وتصبح الدار خلية نحل نشط في أقل من دقيقة، أمي وأبي وأخي الأكبر، سحب أبي في يده أحد الجيران ليبحث معه، وبعد أكثر من ساعتين من البحث المُرهق خشي أبي أن يواجه عمي بالحقيقة، أن

الحبل فص ملح وذاب، اقترب منه وحده أولًا ليمتص غضبه:

«هل يمكن أن تعطيني الفرصة حتى الغد. الغد فقط على أقصى تقدير؟».

ويرفض عمي المهلة، يكظم غيظه ويصر أسنانه، كان كأنه سيأكلنا مقابل هذا الحبل المختبئ في مكان مجهول، ابتعد أبي عن عمي، ثم دخل لأمي واقترح عليها بديلًا ممتازًا لحل هذه المشكلة، اقتنعتْ أمي بالفكرة ولم تتردد في البدء بتنفيذها، جاءت ببعض الملابس القديمة ومزَّقتها إلى شرائط رفيعة في عرض إصبع، ثم فتلتْ الشرائط كل ثلاث مع بعضها، أخذ أبي منها الضفائر وصنع منها ضفيرة واحدة كبيرة ومتينة، ثم خرج بها ملفوفة على ذراعه، وقال لعمي في أبهة:

«خذ. هذا حبل أحسن من حبلك».

ثار عمي ثورة عارمة، أمسك بحبل الضفائر وألقى به على الأرض، سبَّ البشر والطير والحجر، أخذ يجوب المسافة الصغيرة بين المصطبة وباب الدار ذهابًا وإيابًا مرات عدة، عينه تُخرِج شررًا يتطاير، وذراعاه خلف ظهره، كفاه تفركان، ورأسه منحنٍ للأمام كجمل ركبه الحَرَنْ، خُلِعَتْ فردة مداسه فأطاح بالأخرى بعيدًا في حركة غضب عارمة، اختفى أبي من أمامه ودخل لأمي مرة أخرى:

«لا يعجبه شيء، ولا يريد إلا الحبل الذي في رأسه».

تجلس أمي وتسند رأسها على كفها، يهمد بدن أخي الأكبر فيجلس بجوارها، ويقف أبي عند فتحة الباب يدبر أمره.

اقتربتُ من أبي، خرج صوتي هادئًا، كأنه أتى من مكان آخر غير متوتر:

«لماذا لا تقولوا له إن الحبل ضاع؟».

تنتبه أمي، ويحملق أخي، وينظر أبي في عيني مباشرة، يقترب من مجلس أمي وأخي، لكنه لا يوجه كلماته إلى أحد بعينه:

«فعلًا. لماذا نحاول إرضاءه على حساب الحقيقة، لماذا لا نقول له إن الحبل قد ضاع؟».

تقف أمي:

«فعلا الحبل ضاع».

ويتبعهما أبي إلى الخارج، أسمع صوته مُحدثًا نفسه وهو في طريقه إلى المصطبة التي يجلس عليها عمي:

«صحيح. لقد ضاع الحبل».

و

انتهـزتْ جميـع الشـخصيات غيـاب المؤلـف وخرجـت مـن أوراقهـا، أخـذتْ معهـا الأفعـال وهـي خارجـة، والأسـماء أيضـا، تركـتْ الكتـاب يعـج بحـروف العطـف وحـروف الجـر، انتـشر حـرف الـواو بطـول الصفحـات، وقـف بـين شـيئين واطـمأن لمكانه، ثـم نُـثِرتْ علامـات الترقيم حـول الحـروف، جلسـت الشـخصيات جميعهـا بالخـارج يتفرجـون عـلى هـذا الشـكل المتقطـع غـير المفهـوم « و، عـلى، مـن، و، ثـم، إلى، في، إن، و... و...».

أصبحـتْ الصفحـات كلهـا عـلى هـذا الشـكل العجيـب، ولمَّـا فرغـتْ مـن مضمونهـا بذلـك الهـروب الكبـير؛ وجـدت بعـض المتعاطفـين ممـن خرجـوا عليهـا، فحاولـت بعـض الشـخصيات الارتـداد والعـودة لـلأوراق مـرة أخـرى، لكـن شـخصية البطـل كانـت أقـوى منهـم جميعـا، فأقنـعَ معـه الشـخصيات المسـاعدة، ولكـن بقيـتْ الشـخصيات الثانويـة والهامشـية تصنـع بعـض الضجيـج والاعـتراض.

انتصـب عـود البطـل ولـفّ حـول الكتـاب مرتـين، نظـر إلى الأوراق الخاليـة مـن المضمـون بـازدراء وتعـالٍ، أخـذ يُـدوِّر المسـألة في رأسـه، وقفـت الشـخصيات الورقيـة بجـوار البطـل، لحظـة الخـروج كانـوا كلهـم في حجـم واحـد تقريبـا، يتحركـون ببـطء وبـلا أبعـاد، لكـن البطـل وحـده صنـع لنفسـه بُعـدا جديـدا بالحيلـة، وقـف عكـس ضـوء الأباجـورة الثابتـة عـلى مكتـب المؤلِـف، فانتفـخ جسـده وأصبـح مثـل كـرة كبـيرة مـن الظـل، كان شـكله مهيبـا وحجمـه أكـبر منـه في الحقيقـة، ظـل يكلـم الشـخصيات صاحبـة الأدوار الصغـيرة عـن بطولاتـه عندمـا كان راقـدا في الكتـاب، وأنـه اعـترض عـلى تواجـده فـوق هـذه الأوراق بسـبب مهاراتـه وفنونـه غـير المحـدودة.

صدَّقته بعض الشخصيات المساعدة، ولكن الثانويين والهامشيين اعترضوا، لم يجد البطل بديلا يقنعهم به إلا الرهبة، فاستقطب الشخصيات التي اقتنعت ببطولته وأعطاها أدوارًا مساعدة، لم يعطِ للشخصيات الهامشية مثلهم أدوارًا واضحة، فظل الهامشيون على الضآلة نفسها، لكنهم اعترضوا وعملوا جلبة وغاغة، وكان لابد من تهدئتهم. فقفزت الفكرة إلى ذهن البطل ونفَّذها دون تردد.

قال لهم إنه سيبلغ المؤلف عن تمردهم وعدم دعمهم لبطولته الأسطورية، في البداية، لم يكونوا متأكدين من وجود هذا المؤلف في الحقيقة، إذ إنهم قضوا الشطر الأكبر من حياتهم بين الأوراق يؤدون أدوارًا هامشية لا يراها أحد، فانتهز البطل هذه الفرصة وأخذ يبالغ لهم في وصف المؤلف، ويتلو على مسامعهم أغنية من نغمة واحدة، مفادها أنه يمتلك مصيرهم في يده، فيمكن أن يعيدهم صاغرين إلى الكتاب الضيق لو أراد ذلك، ولن يتمكّنوا من الخروج مرة أخرى، سيُدفنون بين حروف الجر وعلامات الترقيم كما كانوا منذ أن خُلِقوا، ليس هذا فحسب، بل سيحاسبهم بأثر رجعي على كل ما فعلوه.

يقنعهم البطل بأن المؤلف خلق لهم أبطالًا يجب أن يسمعوا كلامهم وينصاعوا دون تردد في تنفيذ ما يطلبون.

انقسمت الشخصيات الثانوية على نفسها، وكذلك الشخصيات الهامشية التي لم تكد تظهر في الكتاب إلا مرة واحدة أو مرتين على الأكثر، ولم يعطها المؤلف اسمًا إمعانًا في تهميش مُتعمَّد، فمنهم من آثر السلامة وقرر إرضاء المؤلف في صورة إرضاء البطل، ومنهم من اعترض على هذا الكلام وقرر عدم إرضاء المؤلف أو إرضاء البطل، وبدأت الخيوط تتعقد ككرة الصوف أمام البطل، لكنه لم يغلب في

اختراع حيلة جديدة.

جمع أولًا شخصياته المساعدة، منحهم مناصب كبيرة لكسر شوكتهم وضمان ولائهم، ثم أصبحوا هم وكلاء لما يريده البطل، هو يقول لهم وهم يقولون للمهمشين، تفتت اعتراضات الشخصيات التي لم تكن تحلم حتى وقت قريب بأن يصبح لها رأي، ونسوا المؤلف والبطل ولم يعد يشغلهم إلا الشخصيات المساعدة.

لكن الشخصيات المساعدة ملّت من ترديد كلمات البطل على مسامع المهمشين، فاختاروا بعض الشخصيات الثانوية واجتمعوا بهم في سرية بعيدًا عن عيون البطل، قالوا لهم ما يريده تمامًا، لكن أفهموهم أن هذا هو رأيهم هم، وأن البطل لا علاقة له بهذا الرأي، واقتنع الثانويون بالكلام لأن الشخصيات المساعدة وعدتهم ببعض الامتيازات، وأصبحتْ العقبة متمثلة في المهمشين فقط، ولكنهم كُثر، أكثر من البطل والشخصيات المساعدة والشخصيات الثانوية بأعداد مضاعفة، فجاءت الحيلة للثانويين ولم يترددوا في تنفيذها.

اجتمعوا سرًا ببعض الشخصيات المهمشة المختارة بعناية، ووعدوهم بخلع ألقاب عليهم وخصّهم بامتيازات محدودة، وذلك نظير بعض الخدمات البسيطة التي سيقدمونها للبطل مثل:

أولًا: إقناع باقي المهمشين بوجود مؤلف هم لم يروه ولا مرة واحدة، ثانيًا: يقرون بأسطورية البطل الأوحد الذي لا يأتيه الباطل أبدًا، ثالثًا: وهذا هو الأهم، أن يقنعوا أهلهم من الشخصيات الهامشية بضرورة الصبر على كل المآسي كي تستمر الحياة، فدائمًا القيامة قريبة، والخراب على الأبواب، سينضب الزرع وتتوقّف السماء عن إرسال جندها، والبطل يقيهم وأهليهم دائما شر الحرب والدمار.

ظلت الحال على هذه الوتيرة لمدة طويلة، جيلين على الأقل، المهمشون المختارون يُهدِّئون أحوال المهمشين من أهلهم دون أن يقدموا لهم حلولًا حقيقية، والمؤلف غائب عن كتابه الذي ألَّفه منذ مدة لا يعلمها أحد، والبطل يجلس على عرشه مزهوًا، تبعده مسافة ملحوظة عن الطبقات الأدنى، يعيش في عالم مصطنع وخيالي.

لكن جيل المهمشين الذي ترك الكتاب في أول الزمان ضربه العجز، وأصبح الكبار منهم لا يقدمون أي حكمة، بل إن رؤوسهم كانت خاوية وعقولهم الواهنة تدق الطبل لصاحب المقام الجديد الذي سيجلس على كرسي البطل، وورث بؤسهم ذرية لا يعرفون شيئًا عن الهروب الكبير من صفحات الكتاب، فظلوا يحاربون البطل ولا يعترفون ببطولته رغم الضغوط الشديدة عليهم كي ينصاعوا، ثم توجهوا باللوم إلى المؤلف ذاته، وشكّوا في وجوده من الأساس، فامتنعوا عن نسب الكتاب إليه، وازدروا كل من كان يخاطبه، وانقلبوا على ميراث آبائهم وأجدادهم، ظلوا على هذه الوتيرة من تقلبات الأنفس والشك حتى وصل أمر تمردهم للبطل الجديد، وكان عليه أن يتصرف معهم بشكل مختلف، وتَصرَّف.

في البداية، بحث عن الكتاب الذي هرب منه جدَّه في قديم الزمان، وفتحه أمامهم وأقسم عليه أنه يعمل من أجل مصلحتهم، ولما رأت الذرية الجديدة هذا الكتاب العجيب قالوا إن هناك بعض أشياء مهمة تنقصه، فما معنى مثل هذه الرموز، من ذا الذي يفهم حروفًا مبهمة دون أسماء أو أفعال؟

«و، على، من، و، ثم، إلى، في، إن، و... و...».

كانوا ينظرون إلى الحروف ولا يفهمون شيئًا، ينتهز البطل هذه الحالة من عدم الفهم، ويقوم بتفسيراته الخاصة للكتاب، منهم مَنْ

يُصدِّق ما فسَّره ومنهم مَن يعترض، منهم من كان يشك في رجاحة عقله ومنهم من ينتظر معجزة مبهمة، عندما بدأت بوادر انقسام انتظم تنفس البطل وعاد يدق بقبضتيه على صدره في زهو، كان قليلًا ما يصل إلى مثل هذه الحالة من ثقته بنفسه، يلقي بعض الأوامر السريعة للشخصيات الثانوية ثم ينصرف.

لكن هناك بعض الشخصيات المهمشة اكتشفتْ اللعبة، فحاولوا إيصال رأيهم فيما حدث لأكبر عدد ممكن من الناس، قالوا خلال هذه الاجتماعات السريَّة إن البطل ليس ببطل، وأنبأوهم بأنه مجرد شخصية عادية جدًا، مساعدة أو ثانوية، وربما هامشية مثلهم، وأن المؤلف رَسَمَهُ على الورق في دور صغير جدًا، وكان يمكن أن يقول جملة واحدة أو يلوح بإشارة عابرة، لكنه هو مَنْ نصَّب نفسه بطلًا عليهم، وأنه ليس خارقًا ولا أسطوريًا ولا أي شيء آخر من هذا القبيل.

اندس بينهم بعض أشخاص منهم، من المهمشين أنفسهم، يتنصتون على ما يُقال من نقد للبطل، يستمعون للكلمات جيدًا ويزيدون عليها من خيالهم، يحفظون ملامح مَنْ قال ويُبلغون الشخصيات المساعدة؛ والتي تقوم بتوصيل ما يسمعونه إلى البطل ليفوزوا بمغنم ما، ويسعد البطل لهذه الخليَّة المخلصة التي تعمل من أجل راحته، فيُعيّن أقدرهم على توصيل الكلام رئيسًا لباقي فريقه، ويأمر شخصًا آخر بأن يبني حوشًا كبيرًا له أسوار عالية، فوقها لفائف سلك وأسنَّة حِراب، وفي بطن الحوش يُلقون بكل من سُمِعوا وهُم يعترضون على تسيير البطل لأمور باقي الشخصيات في الكتاب.

لم تمل الشخصيات المهمشة من المحاولات، أنشأوا أماكن يلتقون

فيها ويناقشون إمكانية عودتهم للكتاب مرة أخرى كما كان أجدادهم، وأقنعوهم بأنه إذا عادت جميع الشخصيات إلى الكتاب فستعود بعدها الأفعال، ولو عادت الأفعال سيكون ذلك إيذانًا بهدم السور العالي الذي صنعه البطل، ولو نجحوا في هدم السور ستصبح لديهم الإمكانية لرؤية المؤلف نفسه، وعندما يرونه يمكنهم أن يسألوه عن البطل، وهل هو خلقه في كتابه شخصية عادية مثلهم؛ أم أن له خواص لا تتوفر للناس العاديين؟

لم يجد البطل أمامه حلًا إلا المواجهات الصريحة، فقد فشل السور العالي مع الشخصيات المهمشة، وفشلت مهمة المتنصتين الذين ينقلون للبطل التمرد والاحتجاجات، لم يعد أمامه إلا القتل المباشر ليحتفظ بصورته كبطل.

وبالفعل، بدأت آلة القتل تعمل بأقصى طاقتها، في الوقت الذي كان هناك قلة من المهمشين ينخرون جدران السور العالي، يخرج بعض المحبوسين وهم لا يستوعبون حريتهم، تنزعج أعينهم من رؤية الشمس، وتضطرب عقولهم عندما يرون أشخاصًا جددًا بالخارج، يهرب البطل منهم ليعود إلى الكتاب مرة أخرى، لكنه لا يستطيع، تحاول الشخصيات المساعدة والثانوية والهامشية أن تختار منهم بطلًا جديدًا، وهُنا يقعون في مأزق، لأنهم لابد أن يعودوا إلى الكتاب مرة أخرى، فتعود الأسماء والأفعال إلى جوار حروف العطف وحروف الجر وعلامات الترقيم.

لكنهم عندما بحثوا عن الكتاب لم يجدوه، فقد اختفى في اللحظة نفسها التي اختفى فيها البطل.

جزيل الشكر لـ

عماد العادلي

أشرف العشماوي

إبراهيم عبد الرحمن

هدى أبوزيد

إبراهيم الجمال

أحمد سعيد

الفهرس

العنكبوت وأحلام جدي 9
الحافة والمسدس 15
عمتي والحمار 21
هي وهو 29
الحجر والقتل 35
أثيرة وروحية 41
البديل والمحتمل 53
رضا وصباح 59
الرجل وطريقة موته العجيبة 67
جدي والدراجة 81
المغفلون والحلاق العجوز 87
الشجرة وما تحتها 93
النطفة وروحها 99
الموت وسباطة الموز 105
الخبيئة والليل 111
الولد والبهلوان 117
البائع وخياله 123
مريم ومي 131
عمي وأبي 137
و 143

في **كيان للنشر والتوزيع**، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتَّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش.

ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235688678 -0235611772**

هاتف محمول: **01001872290/ 01005248794 / 01000405450**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصدراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpublishing

+KayanPublishing

KayanPublishing